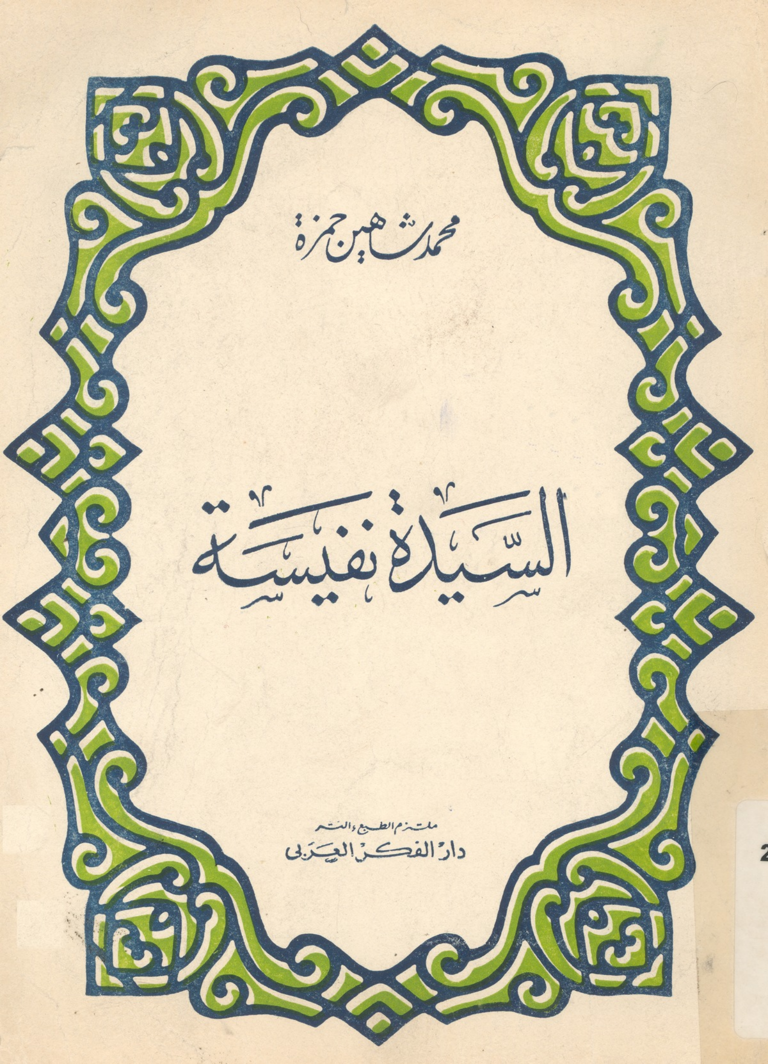

محمد شاهين حمزة
السيدة نفيسة
ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

اهداءات ٢٠٠١

محمد شاهين حمزه

السيدة نفيسة

رضى الله عنها

(١٤٥ - ٢٠٨ هـ
٧٦٢ - ٨٢٤ م)

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

دار النصر للطباعة
١٣ شارع سعد الله
الدرب الأحمر - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى مقامك العظيم فى أعلى علّيين .

إليك يا إمام المرسلين .

يا أصل الشجرة النبوية التى أنبتها الله فى الارض ، وهى من السماء !

إليك يا رسول الله : أهدي هذا الكتاب .

إنه تاريخ ابنتك الطاهرة ، فرع شجرتك النّورانية ، وربيبة مدرستك العالية فى أرض الله .

أخذَتْ لطفولتها من طفولتك ، فكانت البراءةُ والطهرُ ، وكانت الشذى فى الزهر .

وأخذتْ لصباها من صباك ، فكان الجدُّ والإباء ، وكان البرّ والحنان .

وأخذتْ لشبابها من شَبابك ، فكان مُجّاع الشرف والورع ، وقوة الإيمان والإحسان

وأخيراً أخذتْ لكهولتها من كُهولتك ، فكانت بسطةُ العلم ، وطمأنينة النفس ، ومصدر النفحات ، ومهبط البركات .

* * *

كانت رضى الله عنها ، مرآة صافية لك ، اكتملت لها المعانى التى غرستها فى

بنيك الغر ، منذ فاطمة الزهراء وابنيها سيدى شباب أهل الجنة ، ليكونوا من بعدك رسلا من رسول ، وهداة من هاد !

ولمثل هؤلاء ، من رجال ونساء ، يُرفع اللواء ، وتُشعل المنائر وتضاء ، فى كل وقت وحين ، ترديداً أو تجديداً ، للدعوة إلى صراط الحميد .

فتقبلها ياسيدى هدية يعلو قدرها ، ويعظم جاهها بالمهداة إليه .

وعليك صلاة الله وعلى آلك ، ماذرَّ شارق وانهمر وادق ؟

محمد شاهين حمزة

مقـــدمة

مَن تاسكم السيدة الجليلة ، التى ترامت إلى أهـل مصر من أرض الحجاز ، أنباءُ صلاحها وتقواها ، وما أنعم الله به عليها من صور فتحه ورضوانه ، فاهتزوا لأعمالها ، وطربوا لأقوالها وألحان عباداتها وتهجداتها ، وبكائها وأنّاتها ، في الليل إذا سجا ، وتشوقوا إليها وتمنوا قدومها إليهم و نزولها بساحتهم ، ليتبركوا بها ، ويأخذوا عنها لدينهم . فلما جاء البشير بقدومها خرجوا يستقبلونها على الحدود ، وسارعت نساؤهم على هوادجهن إلى العريش ينتظرنها هناك ، ليحيينها أول ماتقبل ويصحبنها فى الطريق ، حتى تبلغ الدار التى أعدت لها وتستقر فيها ، فتستقر منهن القلوب ، وتنشرح الصدور ، ويرجعن حامدات لله شاكرات ، على ما مَنَّ به على البلاد وتفضل ، فى ذلك اليوم المشهود الذى فيه خفق قلب مصر ، أرضاً وسماء ، وداراً وديّارا ؟

من تاسكم السيدة التى تتخيلها مما سمعتَ وقرأتَ عن قيامها وصيامها وطعامها ، أنها ضعيفه نحيلة ، ولـكنك واجدُها ذات قلب كبير ، يفيض بحب الله وحب عبـاده ، وحب الإنسانية ، وتسارع فى الخيرات ، كما تسارع فى العبادات والطاعات ؟ .

لم يـكفها مكانُها من رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، بل أخضعت نفسها ،

منذ نشأتها الباكرة ، لمجاهدات عنيفة ، حتى أصبحت ربّانية ذات قوى روحية مضيئة ، تخضع لها المادة كما يخضع الأثير ! .

ذكرتْ نُصح الرسول للسيدة فاطمه الزهراء بالعمل ، ورنّت كلماته الذهبية فى أذنها حين قال لها « يا فاطمة بنت محمد ، اعملى فإنى لن أغنى عنك من الله شيئا » فاتجهت إلى العمل بكلياتها وجزئياتها ، وإلى مواصلة السير على الدرب الإلهى كى تصل ، وما زالت حتى وصلت !

فكثر محبوها وزائروها فى حياتها الأولى ، وكثر قصادها وكثرت مزاراتها من بعد فى شتى البقاع ، وأقبلوا عليها يَحْبُونها بحبهم ، وينثرون عليها درر تقديرهم وإجلالهم ، ويلتمسون عندها النموذج الحى لعابد الله بالله ، والقدوة الصالحة المحببة للسلوك البشرى المستقيم ، وتحبوهم هى بدورها ، بأشرق التوجيهات والإلهامات وأشرفها ، وبأكرم أنواع الرعاية الروحية لمستحقيها .

* * *

ولمن تلك الصحائف البيض ، تتوالى ولا تتناهى ، فى العبادات والطاعات والخيرات ، عَبْرَ عُمرٍ كان كله أضواءً تنتقل بين مكة والمدينة والقاهرة ومقرّ الخليل إبراهيم عليه السلام ، تنقُّلَ النجوم فى أبراجها ؟

* * *

من هى « نفيسة العلم » أو « نفيسة الطاهرة » أو « نفيسة الدارين » أو « نفيسة المصريين » وهى كلها ألقاب حب وتقدير ، خلعها عليها محبوها ، فاقترنت باسمها على مر الأيام ؟

* * *

مَن . . ؟؟

إن الصحائف الآتية ستحاول الإجابة على هذا السؤال ، ولعلها تستطيع أن تؤرخ ، بحق وصدق ، لشخصية مثالية عظيمة كانت قمينة بعناية أكبر وأوسع من المؤلفين والمؤرخين ، قدامام والمحدثين .

* * *

هى السيدة الخالدة : نفيسة بنت السيد حسن الأنور ، بن السيد زيد الأبلج ابن السيد حسن السبط ، بن الإمام على ، رضى الله عنها وعنهم أجمعين .

* * *

لقد سألتُ عنها أولا كتبَ السِّير والتاريخ القديمة ، ورسائل صغيرة كتبت عنها ، فلم أجد فيها مايروى غُلَّة الصادى إلى الحقيقة ، المنقب فى كل أرض ، والمدقق المحقق فى كل واد . ولو أن أصحابها مشكورون على مقدار ما بذلوا من جهد .

* * *

لقد وجدت شذرات وإشارات وإحالات لا ضابط لها ولا رابط ، متناثرة هنا وهناك ؛ ما كانت لتغنى عما ابتغيت شيئا ، وما كانت لتسمى تاريخاً ، فشعرت بوجود نقص فى المكتبة الإسلامية ، وبَرقَ فى ذهنى بارق ، هو محاولة سد هذا النقص .

* * *

وبعد قليل من التفكير نهضتُ لهذه المحاولة ، راجياً من الله التوفيق فى إصدار هذا الكتاب ، ومتمنياً عليه أن يفتح باب خير للقارىء ، وطريقاً لا يضلّ سالكه ، ولا يحبط فيه عمله .

* * *

وقد وضح لى سريعاً وأنا ألقى نظرتى الأولى على المراجع التى أعددتها لدراسة هذا التاريخ أن فى كتب السّير وكتب التاريخ القديمة اختلافاً كبيراً وأخطاء عديدة ، وقد يتكرر الخطأ هنا وهناك حتى ليظنه القارىء صحيحاً فيقع فى خطأ جديد ، هو الاعتقاد بصواب ذلك الخطأ وصحته . ولأولئك المخطئين الأولين أعذارهم ، سواء أكانوا رواة أم كانوا مؤلفين ، فإن وسائل المراجعة والتثبت لم تكن ميسورة أو متوافرة فى عصورهم ، ولم يكن للتاريخ كبير وزن عندهم يحملهم على تجشم المشاق فى سبيله ، كما حدث للحديث الشريف حيث بُذل فى سبيله أكبر جهد ، واحتمل جامعوه من العناء والتضحية ما يذكر لهم بالثناء والتقدير والفخر .

ومن الأمثلة على ما نحن بصدده من الأخطاء والاختلاف بين الكتب فى تاريخ السيدة نفيسة رضى الله عنها زعم بعض المؤلفين والرواة أنها ابنة السيد زيد الابلج بن الحسن السبط ، على حين ذكر البعض الآخر أنها ابنة السيد الحسن الأنور بن السيد زيد الأبلج ، وهو الحق الذى لاشك فيه .

وبينما ذكرت بعض تلك الكتب أنها قدمت إلى مصر فى صحبة زوجها ذكر البعض الآخر أنها قدمت إليها مع أبيها .

وقد ثبت لنا أنها قدمت إلى مصر برفقة زوجها ، ثم جاء أبوها إلى مصر بعد أربعة أشهر من إقامتها بها مع زوجها .

ولعل أكبر ما اختلف فيه الرواة واختلفت فيه تلك الكتب واقعة تتصل بأحمد بن طولون .

فقد ذكر في تلك الكتب التي نقل عنها كثيرون أن أهل مصر شكوا إلى

السيدة نفيسة ظلم أحمد بن طولون وشدة عسفه وجبروته ، فقالت لهم : متى يركب؟ فقالوا في غد ، فأعدت له رقعة ووقفت في طريقه فلما أقبل قالت له : يا أحمد بن طولون . فلما رآها عرفها وترجل لها عن فرسه وأخذ منها الرقعة ، وكان مكتوبا فيها .

« ماسكتم فأسرتم . وقدرتم فقهرتم . وخوّلتم ففسقتم . ودرّت عليكم الأرزاق فقطعتم . وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة ، ولا سيما من قلوب أوجعتموها ، وأجساد عريتموها . اعملوا ماشئتم فإنا صابرون ، وجوروا فإنا بالله مستجيرون ، واظلموا فإنا منكم متظلمون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

وقال الرواة إنه عدل عن ظلمه ، وعدل منذ تلك اللحظة .

* * *

نشر بعض تلك الكتب هذه القصة ولما كان قدوم السيدة نفيسة إلى مصر مع زوجها في عام ١٩٣ هـ وكان انتقالها إلى دار البقاء في عام ٢٠٨ هـ وكانت بداية الحكم الطولوني لمصر في عام ٢٥٠هـ فقد وضح واستبان عدم صحة تلك الواقعة التي بلغ من ذيوعها نشر تلك الرقعة أو الإشارة إليها والإشادة بها في معرض أحاديث الأدب في آل البيت . ما كان لهذه الرقعة أن تذيع هذا الذيوع لولا نسبتها إلى السيدة نفيسة التي خلع اسمها عليها هالة من هالات الشهرة . شأن كل ما ينسب لعظيم مرفوع الذكر .

وبعد الاطلاع على المصادر الموثوق بها في هذا عرفنا الحقيقة الآتية :

(أن ابن طولون كان يعبد الله حق عبادته ، حين يكون منفردا ، ولكن

كانت تأخذه العزة بالإثم ، حين يباشر سلطانه فى أمور الناس ، حتى ضجت الرعية مما وقع عليها من ظلم .

وتلقاء تعبده وجده بحق ، أشفق عليه من مغبة معاملته للناس فأرشد وحيا ، وهو فى حلم كاليقظة إلى أن يعدل وذكر بما ورد عن ذلك فى القرآن الكريم والحديث الشريف فأصاخ إلى ما أرشد إليه وأطاع وحكم بالعدل بعد ذلك .

ثم أغرق فى عبادة الله حتى لقى ربه وهو من المقبولين » .

وبذلك زال اللبس والتخبط والاختلاف حول تلك الواقعة ، ووضع الأمر فى نصابه .

* * *

ومما ورد فى بعض تلك الكتب القديمة أن السيدة نفيسة أقامت فى مصر سبع سنوات على حين أنها أقامت بها خمسة عشر عاما من عام ١٩٣ هـ إلى عام ٢٠٨ هـ كما ثبت لنا من مراجعاتنا .

وخطأ آخر وقعت فيه تلك الكتب ، هو قولها : إن السيدة نفيسة حين قدمت إلى مصر وجدت بها السيدة سكينة رضى الله عنهما وأن الأخيرة خلعت على الأولى كل شهرتها فى مصر ، واختفت !

وهذا غير صحيح من أساسه ، ذلك لأن السيدة سكينة انتقلت إلى رحمة الله فى عام ١٢٠ هـ (وفى رواية أخرى فى عام ١١٧ هـ) أى قبل مولد السيدة نفيسة بنحو ربع قرن .

وبعــد : فتلك أمثلة ممــا وقع فيه السلف فى هذا المقام من أخطاء فى ثنايا مصنفاتهم ، صوّبناها هنا .

وقد رأينا أن نحرص الحرص كله بعد ذلك على سرد الحقائق فى هذا الـكتاب دون الإشارة إلى الأخطاء ولا إلى مواضعها من الـكتب القديمة مكتفين بالتصويب الضمنى ، رغبة فى الإيجاز ، راجين بذلك أن يكون الـكتاب كله حقا وصدقا ويكون مرجعا تاريخيا يرجع إليه من شاء فى المستقبل ، وهو على ثقة منه واطمئنان إليه .

* * *

مطلع الفجر

فى أواخر عام ١٣٢ هـ خفق العلم الأسود ، شعار العباسيين ، على حصون دمشق وغيرها ، إيذانا بقيام الدولة العباسية وزوال الدولة الأموية . فاستقبل العالم الاسلامى العهد الجديد استقبال المدلج فجره ولألاءه ، وأخى السقام دواءه وشفاءه ، وفاض الجو بأحسن الآمال ، فى أن يوفق الله الحاكمين الجدد فى السير بالاسلام والمسلمين على ما يحبه ويرضاه ، وأن يعيد على يدهم أيام الخلفاء الراشدين الزاهرة ، وأن يكتب لهم مجد فى الدنيا والآخرة .

وفى خلال الفترة القصيرة التى سوف نعنى بها فى هذا الكتاب من تاريخ المسلمين ، وهى بين عامى ١٤٥ و ٢٠٨ هـ نعتقد أن شطراً كبيراً مما داعب المسلمين من آمال عند قيام الدولة العباسية قد تحقق .

لم يَسِرْ كل شىء حقا على النهج السوىّ ، فقد كانت هناك عثرات وكبوات ، لكن ما خالطها من حسن النية غالبا ، أو أحاط بها من حكم الظروف القاهرة ، يمكن أن ينهض عذرا مخففا فى الحكم على الحكام ، فيما صدر منهم من أخطاء .

على أنا إذا وازنا بين حسناتهم وسيئاتهم ، ألفينا كفة الحسنات هى الأرجح ، ذلك على افتراض صدق كل ما قيل عنهم وعدم وجود مبالغات فيه ، وإن كنا نميل إلى وجود هذه المبالغات .

كان الجد والحزم . . الجد فى التفكير والعمل ، والحزم فى الإدارة وتصريف الشئون ، طابع خلفاء الصدر الأول من الدولة العباسية وولاتهم ، إلا قليلا ، وكانوا لا يخلون من عواطف الرحمة والحنان على الرعية ، ومن السهر على مصالحها . وكان الطموح وطلب الرفعة للإسلام ديدن الجميع . وفى نشر العلوم والمعارف والآداب كان لهم باع طويل وصحائف بيضاء تذكر لهم بالحمد والتقدير .

كانوا فى مجموعهم أهل فضل ، وكانوا على درجات متفاوتة فى مزجهم بين الدين والملك فى سياستهم . ويصف بعض المؤرخين دولتهم بقوله :

« كانت دولة كثيرة المحاسن جمة المكارم . أسواق العلوم فيها قائمة ، وشعائر الدين معظمة » .

ولك أن تتحدث ماشئت الحديث عن عنايتهم بالدنيا ، ولك أيضا أن تتحدث ماحلا لك الحديث عن عنايتهم بالشئون الدينية العامة ؛ وعن أثر هذا وذاك على المسلمين قاطبة ، فالناس مذ كانوا وكان لهم ملوك ، على دين ملوكهم !

ولا نريد أن نتتبع هؤلاء فى شئون دنياهم كما فعل المؤرخون ويفعلون ، ولكننا سنحاول أن نقف وقفات قصيرة على بعض أعمالهم واتجاهاتهم الدينية ، إبان الصدر الأول من الحكم العباسى الذى يمثله سبعة منهم هم :

السفاح	من	١٣٢	إلى	١٣٦ هـ
المنصور	«	١٣٦	«	١٥٨ «
المهدى	«	١٥٨	«	١٦٩ «
الهادى	«	١٦٩	«	١٧٠ «
الرشيد	«	١٧٠	«	١٩٣ «
الأمين	«	١٩٣	«	١٩٨ «
المأمون	«	١٩٨	«	٢١٨ «

فى غمار الأحداث الخطيرة التى كانت محيطة بالخليفة الأول ، أبى العباس السفاح ، وفى خلال الحروب التى خاضها ضد فلول الأمويين ، لم ينس واجباته فى سياسة العلم والدين ، بل وفّاهما حقهما عليه جهدَ طاقته .

قال يوماً : (العجب ممن يترك أن يزداد علماً ويختار أن يزداد جهلا) فقال له أبو بكر الهذلى وكان جليسه ساعتئذ : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ فقال : « يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك ، ويدخل إلى امرأة أو جارية فلايزال يسمع سَخَفاً ويَروِى نقصا » فقال له الهذلى : لذلك فضلكم الله على العالمين وجعل فيكم خاتم النبيين » .

وكان نقش خاتَمه : (الله ثقة عبد الله وبه يؤمن) .

وفى خلال غبار الفتن والأحداث الخطيرة التى واجهت أبا جعفر المنصور تلمع أقوال له وأعمال ، ذات روعة وجلال . منها أنه ولى رجلا من العرب حضرموت ، فكتب إليه والى البريد يقول له عنه : إنه كثير الخروج فى طلب الصيد ببزاة وكلاب قد أعدها ! فعزله المنصور لفوره وكتب إليه يقول : « ثكلتك أمك ، وعدمتك عشيرتك . ما هذه العُدّة التى أعددتها للنكاية فى الوحش ؟ إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش ! سلّمْ ما كنت تلى من عملنا إلى فلان ابن فلان ، والْحَقْ بأهلك ملاماً مدحورا ! »

وقد عُرف المنصور بالجد فى حياته الخاصة . فلم يُعرف عنه ميل إلى اللهو والمجانة والعبث . . رُوى أنه سمع يوماً جلبة فى داره فسأل عن هذا ، فقيل له : خادم له قد جلس بين الجوارى ، وهو يعزف لهن على الآلة الموسيقية المعروفة « بالطنبور » وهن يضحكن . فقام ومشى رويداً رويداً حتى أشرف عليهن . فلما رأينه تفرقن . فأمر المنصور بأن يضرب رأس الخادم بالطنبور ، فلم يزل يضرب به رأسه حتى تكسر . ثم أخرجه من قصره .

وفى وصيته لولى عهده المهدىّ حثه على الرأفة بالرعية ، والسهر على راحتهم ، وبسط العدل بينهم ، والتقرب إلى الله بحسن السيرة ، وإجلال أهل العلم والدين وعمارة الأرض لتخفيف الخراج ، ونشر الاسلام والجهاد فى سبيل إعلاء كلمته .

وقـــد ذهب بعض المؤرخين إلى أن المنصور كان أعظم الخلفاء العباسيين شدة وبأساً وحزماً ، ويقظة وصلاحاً ، واهتماماً بمصالح الرعية ، وجدا فى بلاطه ، وكان يقوم الثلث الثالث من الليل ، ويظل يعبد الله حتى يصلى الفجر .

* * *

وجاء المهدى فكان شديدا على أهل الإلحاد والزندقة والخوارج ، لا تأخذه فى مطاردتهم لومة لائم ، وأطلق سراح العلويين الذين حبسهم أبوه المنصور ؛ وعفا عنهم وأدر عليهم الأرزاق ؛ وزاد فى المسجد الحرام .

وسنّ سُنة كسوة الكعبة سنوياً بكسوة جديدة ، بعد أن كانت الكُسى توضع فوق بعضها ، وسار على ذلك من جاء بعده من الخلفاء .

وقضى على فتنة رجل ادعى النبوة فى خراسان ، فقتله وأباد جيشه ، وذلك قبل توليه الخلافة .

وجلس للمظالم بنفسه ، وبين يديه القضاة ، وبلغ من حبه للعدل ، وميله إلى ردّ المظالم لأربابها أنه كان يقول إذا جلس : (أدخلوا علىّ القضاة فلو لم يكن ردى للمظالم إلا حياء منهم لكفى)

* * *

وندع الهادى لقصر مدة خلافته ، ونذهب إلى الرشـــيد ، لنستمع أولا إلى قول أحد المؤرخين فيه :

قال ابن طباطبا : « كانت هذه الدولة — العباسية فى عصر الرشيد — غرة فى جبهة الدهر ، وتاجاً على مفرق العصر ، ضربت بمكارمها الأمثال ، وشُدّت إليها الرحال ، ونيطت بها الآمال ، وَبذَلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها ، ومنحتها أوفر إسعادها » وقال أيضاً : « كانت دولة الرشيد من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ، ورونقاً وخيرا ، جبي الرشيد معظم الدنيا . ولم يجتمع على باب خايفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد » .

ولما كانت عنايتنا متجهة صوب الجوانب الدينية، فنحن نسجل للرشيد من مفاخره ابتناء المساجد ، وقيامه للحج عاماً ، وللغزو عاماً ، طوال حكمه ، إلا فى قليل ، كما روى الرواة . . ونسجل له أيضاً — كما رووا — صلاته كل يوم مائة ركعة ، وسيره إلى الحج ماشياً فى إحدى مرات حجة اقتداء بغيره من الصالحين . وكان إذا حج حج معه مائة ألف من الفقهاء وأبنائهم ، وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الفاخرة .

ومما يروى عنه ما يلى :

قال الأصمعى : « صنع الرشيد طعاماً ، وزخرف مجلسه ، وأحضر أبا العتاهية وقال له : صِفْ لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا . فقال :

عِشْ ما بدا لك سالما فى ظل شاهقة القصور

فقال الرشيد : أحسنت . ثم ماذا ؟ فقال :

فإذا النفوس تقعقعت فى ظل حشرجة الصدور
فهناك تعلم مُوقنا ما كنت إلا فى غرور

فبكى الرشيد . فقال الفضل بن يحيى : بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فحزنته . فقال الرشيد: دعه فإنه رآنا فى عمى فكره أن يزيدنا منه !

كذلك كانت زوجته أم جعفر أرغب الناس فى الخير . أدخلت الماء الحرم بعد امتناعه عن ذلك .

وذكر السيوطى أن الرشيد أراد أن يوصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر مما يلى القرما . فقال له يحيى بن خالد البرمكى : كان يختطف الروم الناس من المسجد الحرام وتدخل مراكبهم إلى الحجاز ، فعدل الرشيد عن هذا الرأى .

وننتقل إلى المأمون الذى تولى الخلافة فى عام ١٩٨ هـ متخطين الأمين الذى لم يسجل له التاريخ محاسن ، وندع له (أى للمأمون) مفاخره العظيمة فى نقل العلوم والمعارف من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية ، وتقريبه أهل الحكمة ، ونسجل له مما له صلة بما نعنى به وهو قراره الخطير بنقل الدولة من بنى العباس إلى العلويين، وعهده بولاية العهد من بعده إلى علىّ الرضا ، ومصاهرته له ،[1] وإنزاله العلويين منازل العزة والكرامة .

ويقول عنه المؤرخون : (تحلى المأمون بكثير من الصفات التى ترجح كفة الحكم له فى نظر التاريخ) .

وآخر مفخرة له أنه توفى فى آخر غزوة له فى سبيل الله، متأثرا بحمّى أصابته ، وهو فى حربه ضد الدولة البيزنطية .

---

(١) عهد بولاية العهد إلى على الرضا فى عام ٢٠١ ومات علىّ عام ٢٠٣ أى فى حياه المأمون الذى توفى فى عام ٢١٨ فلم تنتقل الدولة إلى العلويين بل ظلت فى يد العباسيين حتى دالت دولتهم من بغداد على أيدى التتار فى عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) .

وعندما أحس بدنو أجله أوصى ولى عهده المعتصم بقوله : (اعمل عمل المريد لله ، الخائف من عقابه ، ولا تغترّ بالله ومهلته ، ولا تغفل أمر الرعية . الرعيةَ . . الرعيةَ . . العوام . العوام . فإن الملك بهم . وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم .. اللهَ اللهَ فيهم وفى غيرهم من المسلمين . ولا ينهين إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم إلا آثرته على غيره من هواك .. الخ)

وآخر صورة يمكن التعرف بها على حقيقة الروح الدينية فى الشعب الإسلامى فى الفترة التى نؤرخ لها ، المشهد الرائع الآتى .

طلب المأمون إلى علىّ الرضا ، أثناء ولايته للعهد أنه يصلى بالناس صلاة العيد نيابة عنه لمرضه ،فاعتذر،فالح المأمون ، فاشترط علىّ أن يخرج إلى الصلاة على الصورة التى كان يخرج عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقبل المأمون .

وجاء الموعد فخرج علىّ من بيته ، وقد اغتسل وتطيب ، وأخذ عكاز فى يده ، ومضى ماشيا إلى المسجد ، رافضا أن يركب . ففعل أتباعه ومواليه مافعل، كذلك فعل الجند الذين أرسلهم المأمون ليكونوا فى صحبته .

ساروا جميعا رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ، واجتمع الناس وساروا خلفه ، كلما كبر كبروا ، وكلما هلل هللوا ، وهم سائرون بين يديه ، حتى خيل للناس أن الجدران تجاوبهم بالتهليل والتكبير . وارتفع الصراخ والبكاء ، فبلغ ذلك المأمون . فقال له الفضل (إن بلغ الرضا المصلى افتتن به الناس ، وخفت على دمائنا وارواحنا وعليك أنت ، فابعث إليه ورده . فبعث ورده،وخرج هو وصلى بالناس على الرغم من مرضه .

أرأيت الجلال والجمال فى هذه الصورة أيها القارىء ؟

أرأيت قوة الإسلام والايمان إذا انطلقت من عقالها ؟

وإذا كان الذين شهدوا هذه الصورة كانوا يبكون ويصرخون ، فنحن اليوم أشد منهم بكاء وصراخا ، فى داخل صدورنا ، لمجرد تخيل ذلك المشهد الرائع !

ولعل هذا القدر يكفى فى تصوير ماأردت . ولعل القارىء عاذرى بعد ذلك فى اجتزأئى بالجانب الدينى . على إنه إذا شاء الدنيا وبهجتها ، وزخرفها وزينتها ، فى تصوير ذلك العصر الذهبى ، تمشيا مع هوى النفس أو رغبة فى الجمع بين الاثنين ، فإنه واجد ما يريد وأكثر مما يريد ، فى كتب التاريخ الأخرى التى أبرزت الجوانب الدنيوية وجسّمتها على حساب الجانب الدينى.[1]

* * *

وبعد . فتلك صورة عامة حية للاسلام ، فى صدر الدولة العباسية . ابرزنا فيها الجانب الدينى دون سواه ، وآثرناه على غيره من الجوانب . عمدا . لحاجتنا إليه فى هذا الكتاب على قدر ماسمحت به صفحاته .

ويرى القارىء أنها صورة لحياة جاها جد وحزم . وهل الإسلام إلا كذلك؟

فى خلال هذه الحياة . . خلال عهد لم يكن قد نأى كثيرا عن عهد النبوة

---

(١) من أحاديث السيدة نفيسة رضى الله عنها أن الدولة العباسية كان فيها مجاهدون ابلوا بلاء حسنا فى سبيل الله ، ومضوا تاركين من تاريخهم المجيد للسلف احسن قدوة .

ـــ وكان المأمون رحيما مخلصا، فى طاعة الله وخشيته والتفكير فى كل خطوة يخطوها . وما أقدم على أمر إلا إذا كان فيه مرضاة الله وتلك هى الصفات التى يتميز بها المخلصون الصالحون .

المحمدية ، وتعاليم الرسالة الإسلامية ، ولا ارتفعت فيه عن الأرض روائحه الزكية أو انطفأت أنواره المشرقة فى الصدور —

فى خلال هذه الحقبة عاشت فى مكة المكرمة أسرة مجيدة ، تقية نقية ، ذات حسب ونسب ، لها فى الحياة العامة شأن ، ولها فى حياتها الخاصة شئون ، هى صلاتها بالله ، وهى طاعاتها وعباداتها ومسارعاتها فى الخيرات .

أسرة لها من تلك الدولة أجمل مزاياها ، وليس لها من عيوبها شىء ، تعاونها فيما كان لله ، وتجافيها فيما كان لغير الله .

وفى عام ١٤٥ هـ وهو من أعوام ابى جعفر المنصور ، الخليفة العباسى الثانى ، ولدت لتالكم الأسرة المرموقة الموموقة ، ابنة عقد اليمن بناصيتها ، وامتزج الخير بانفاسها ، هى نفيسة الطاهرة الشريفة من أم بارة صالحة وأب له فى مكة كلها وما حولها وفى مدينة الرسول مقام محمود . هو (حسن الأنور بن زيد الأبلج[١])

ولدت فى هذا البيت الكريم ، لترضع من أشرف فضائله ، وتسقى من أنقى مناهله ، ،ايؤهلها لمقعد صدق بين المصطفين،ولرسالة من رسالات الصالحين الذين يهبطون إلى الأرض فى أرواح ملائكية مغلفة باجسام ترابية « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم »

---

(١) ولدت السيدة نفيسة فى يوم الأربعاء ١١ ربيع الأول سنة ١٤٥هـ بمكة المكرمة

ذرية بعضها من بعض

أبوها :

هو السيد حسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن السبط ، بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين .

كان إماماً ، وعالماً جليلا ، من كبار أهل البيت ، ومن سروات العلويين وأشرافهم وأجوادهم . وهو معدود من التابعين .

وكان يسمى بشيخ الشيوخ . . وإليه انتهت الرياسة على بنى الحسن فى زمنه .

وَلِىَ المدينة من قِبَل أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور خمس سنوات . ثم حبسه فى بغداد خوفاً منه ، لدسيسة ألقيت فى أذنه كانت كاذبة خاطئة . وما زال فى حبسه حتى مات المنصور فأخرجه ابنه وخليفته المهدى وأكرمه وأعاده إلى منصبه وردّ له ما كان قد صادر أبوه من أمواله وممتلكاته .

ولما ولِىَ الحسنُ المدينة المرة الأولى كان بها رجل فقير يقال له (ابن أبى ذئب) فقربه الحسن وأحسن إليه ، وما زال يرعاه حتى صلحت حاله ، وكثر ماله ، ثم قرّبه الحسن إلى المنصور ، فلما أصبحت له حظوة عند الخليفة شرع يتكلم فى حقّ

الحسن ، وينم عليه ، ويدس له ، حتى قال للمنصور عنه : إنه يريد الخلافة ! ! فاستقدمه المنصور وحبسه .

ولما عاد الحسن إلى منصبه فى ولاية المدينة معززاً مكرماً منعماً عليه بالجزيل من الأموال ، ظن ذلك الرجلُ الذئبى فى اسمه وخصاله أن الحسن منتقم منه . لكن الحسن كان أكبر من ذلك وأسمى خُلقا . فقد أخذه بالعفو والإحسان ، فلم يخاطبه فيما قدّمت يداه ، ولا عاتبه ، بل أرسل إليه بهدية عظيمة ، وأمده بمال وفير ، فكان آية فى مكارمه وعلو شمائله .

وفى خطط المقريزى أن أباه زيدا الأبلج توفى وابنه الحسن هذا غلام ، تاركا ديناً مقداره أربعة آلاف دينار . فلما شب الغلام وأدرك الموقف أقسم أن لا يُظل رأسه سقف إلا سقف مسجد الرسول أو سقف بيت رجل يكلمه فى حاجة ، حتى يقضى دين أبيه . وقد قضاه ووفّاه .

ومن صور كرمه أنه أتى بشاب مخمور ، أثناء ولايته على المدينة . فقال له الشاب (يا ابن رسول الله : لن أعود . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَقيلوا ذَوى الهيئآت عَثَراتِهم . وأنا ابن أبى أسامة بن سهل بن حنيف . وقد كان أبى مع أبيك كما علمت) .

فقال له الحسن : صدقت . هل أنت عائد ؟ قال : لا والله . فأقاله وأمر له بخمسين ديناراً . وقال له تزوج بها . فتاب الشاب وحسنت سيرته ، فوالاه الحسن بالإحسان .

وقد قصده الشعراء والمادحون بقصائدهم لكرمه وغزير علمه فما خيَّب لأحد منهم فيه أملا ، ولا ردّه صفر اليدين .

وكان جمّ التواضع . . دخل عليه أحد الشعراء وأنشده : (الله فرد وابن زيد

فرد) فغضب وقال : هلا قلت (.الله فرد وابن زيد عبد ؟) ونزل عن سريره وألصق خده بالأرض !

فعل هذا أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم . كان إذا عظمه أحد أصحابه أو وفوده مرّغ خده فى التراب !

وكان رضى الله عنه صالحاً مجاب الدعوة . ختم حياته بأحسن خاتمة . حيث مات وهو فى طريقه إلى الحج . ولما كان موته قريباً من مكة فقد نقل إليها ودفن بها (١) .

* * *

ذلك هو الحسن الأنور . أما أبوه زيد الأبلج الذى ورثه فى كثير من خلاله ، فهو الذى قيل فيه :

وزيد ربيع الناس فى كل شَتْوَةٍ   إذا اختلفت أبراقها ورعودها
حمولا لاشتات الديات كأنه   سراج الدجى قد قارنتها سعودها

---

(١) للسيدة نفيسة عشرة أخوة من أبيها الحسن هم : أبو القاسم ، ومحمد ، وعلى وابراهيم ، وزيد ، وعبيد الله ، ويحي المتوج بالأنوار ، وإسماعيل ، وإسحق ، وأم كلثوم . وأمهم أم سلمة زينب بنت الحسن المثنى بن الحسن السبط .

وقد اشتهر أولهم (أبو القاسم) بالزهد والعبادة ، وسكن أولاده نيسابور ، ومن أولاده (العدوى) شيخ (البيهقى) .

والبيهقى هو الإمام أبو بكر أحمد ، ولد سنة ٣٨٤ هـ وتوفى سنة ٤٥٨ هـ . قال عنه إمام الحرمين :

(ما من شافعى إلا وللشافعى فضل عليه غير البيهقى فإن له المنة والفضل على الشافعى لكثرة تصانيفه فى نصرة مذهبه وتأييد آرائه) .

وقال الذهبى (لو شاء البيهقى أن يعمل لنفسه مذهباً يجتهد فيه لكان قادرا على ذلك لسعة علومه) .

وزيد هذا هو ابن الحسن السبط الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو له فيقول : « اللهم إنى أحبه فأحبه » ويقول : « إن هذا ريحانتى »

ومن هــــذه الريحانة . ريحانة القرن الأول للهجرة . جاءت نفيسة إحدى رياحين القرن الثانى ، بعبقها الخاص المميِّز لها عن سائر الرياحين الأخرى .

جاءت لتملأ بيت والديها المحبوبين بهجة وإسعاداً ، فتنطلق ألسنة الأسرة بحمد الله على هذه النعمة الجديدة التى أنعم بها عليهم ورزَقهم إياها .

اسحق المؤتمن

وبلغت الفتاة الطاهرة سن الزواج ، وسرت سيرتها العطرة مسرى النسائم بين القوم ، فرغب الناس فى خطبتها ، فأبى أبوها تزويجها .

ثم جاء السيد إسحق المؤتمن ، يخطبها من أبيها ، فصمت ولم يرد عليه جوابا .

فقام إسحق من عنده ودخل الحجرة النبوية وقال بعد السلام : (يارسول الله إننى خطبت نفيسه بنت الحسن منه فلم يرد علىّ جوابا وإننى لم أخطبها إلا لخيرها ودينها وعبادتها) ثم خرج من الحجرة الشريفة .

فرأى والدها النبى صلى الله عليه وسلم تلك الليلة فى المنام فقال له : (ياحسن زوج نفيسه لإسحق المؤتمن) .

فعقد له عليها فى يوم الجمعة الخامس من شهر رجب سنة ١٦١ هـ وكان عمرها إذ ذاك خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر وأربعة وعشرين يوما .

والسيد إسحق هذا هو ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين ابن الحسين رضى الله عنهم أجمعين (١)

---

(١) لقب بالمؤتمن لاشتهاره بالأمانة وتكريما له بين العارفين

وكان إسحق من أهل العلم والخير، والفضل والتقوى، روى عنه الحديث . وكان ابن كاسب إذا حدث عنه يقول (حدثنى الثقة الرضى إسحق بن جعفر)

وقد أخذ إسحق كثيرا من أبيه جعفر الصادق الذى كان أماما نبيلا ، وعالما جليلا ، أخذ الحديث عن أبيه وجده وعين واليا على المدينة من قبل العباسيين بعد ذلك بزمن .

وكان جعفر ، أبو إسحق ، كما ذكر المؤرخون ، ثقة لا يسأل عن مثله . رَوَى عنه الـكثيرُ من أفاضل الرواة ، ومما يدل على مكانته فى الرواية والحديث القصة الآتية : قال ابن أبى حازم : كنت عند جعفر الصادق يوما وإذا بسفيان الثورى على الباب فقال أئذن له . فدخل ، وقال له جعفر :

يا سفيان . إنك رجل يطالبك السلطان . فى بعض الأحيان . وتحضر عنده . وأنا أتقى السلطان . فاخرج عنى غير مطرود .

فقال له سفيان : حدثنى حديثا أسمعه منك وأقوم . . فقال إليك هذا الحديث :

(حدثنى أبى عن جدى عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أنعم الله عليه نعمة فليحمد الله . ومن استبطأ الرزق فليستغفر الله ، ومن حَزَبَه أمر فليقل : لا حول ولا قوة إلا بالله) .

ثم قال خذها ياسفيان : ثلاثا وأى ثلاث ! فانصرف سفيان بما نال .

* * *

وكان جعفر رجلا شجاعا مهيب الجانب . كثيرا ما اصطدم بالخليفة أبى جعفر المنصور ، وكثيرا ما دخل معه فى مساجلات ومناوشات كلامية وخرج منها منتصراً .

كان راجح العقل ، متقد الذهن ، حاضر البديهة ، صاحب أجوبة مسكتة مفحمة

كان يجاس يوما مع المنصور ، فوقع ذباب على وجه المنصور فذبّه وعاد إليه حتى أضجره . فقال المنصور لجعفر : لم خلق الله الذباب ؟ فأجاب جعفر : ليذلّ الجبابرة .. فسكت وهو يحرق الأرم !

وكان جعفر كثير المناقب والكرامات . وكان مجاب الدعوة . إذا سأل الله شيئاً لا يكاد يتم قوله إلا وهو بين يديه .

نال شهرة واسعة بكتاب الجفر الذى ألفه ، وهو أول كتاب من نوعه وضع باللغة العربية .

وله أقوال رائعة ،منها قوله:

« البنات حسنات . والبنون نعم . والحسنات يثاب عليها ، والنعم يسأل عنها »

ذاك هو إسحق المؤتمن . أخذ عن أبيه جعفر الصادق هذا كثيرا.وورث عنه كثيرا من علومه وآدابه وأخلاقه حتى أصبح له شأنه ومقامة .

لذلك كان الانسجام تاما بينه وبين زوجته . والتوافق كاملا . كل يفهم الطرف الثانى ويدركه بعقله وروحه . وكل تتحد بواعثه وأهدافه الدنيوية والأخروية ببواعث الثانى وأهدافه .

وبزواج السيد إسحق من السيدة نفيسة إجتمع فى بيتها نوران . نور الحسن والحسين . سيدا شباب أهل الجنة . والسيدة نفيسة حسنية كما علمت ، والسيد إسحق حسينى ، كما رأيت .

(ذرية بعضها من بعض)

وقد ولدت منه السيدة نفيسه أبا لقاسم وأم كلثوم ولم يعقبا .

من أم القـــرى إلى يثرب

وفيما هى فى أنسها بأم القرى وما حولها ، تتقلب فى جنباتها بين شتى نعمها الإلهية ؛ قررت الأسرة الانتقال منها إلى مدينة الرسول .

وإذن ستفارق السيدة نفيسة مكة ، مرتع طفولتها ، ومراح روحها ، وموطن مدرستها الأولى .

ومكة لمن يعرفها – من أولى النهى وذوى البصائر – جامعة إلهية كبرى . ألم تهبط بها أشرف العلوم اللدنية ، على طائفة من قادة البشرية ، وعلى رأسهم سيدهم وسيدنا محمد ؟ ألم تهبط فيها الإشراقات العلوية على كثير من رجال الله عبر التاريخ ، فكانوا حكماء زمانهم ؟

ستترك مكة وفيها من ذكرياتها وأماكنها المأثورة الكثير، ستترك المطاف ، والملتزم ، والحجر الأسود وزمزم ، وتترك الصفا والمروة ، وتترك عرفات والمزدلفة ومنى ، ومواضع الجمرات الثلاث ، وتترك مسجد الخيف . وغير ذلك مما يحرك العواطف الروحية ويستثيرها .

أجل . ستترك بيت الله الحرام أفضل موضع فى مكة • وستترك الموضع الذى يليه فى الفضل وهو دار جدتها الكبرى خديجة حيث ولدت فاطمة الزهراء •

وستترك أيضا فيما تترك الموضع الذى يلى دار خديجة فى الفضل وهو دار الأرقم (١)

وهل تنسى هذه المواضع الزاهرة التى طالما زارتها ، وتحدثت إليها وتلقت منها أحاديثها ، واستجوبتها فاجابتها إلى طلبتها ؟ هل تنسى ؟ كلا .. فقد أصبحت جزءا منها لا يتجزأ .

لهذا فإنها تودّعها ، وكأن لسان حالها يقول:

يا ساكنى البطحاء هل من عودة ... أحيابها ياساكنى البطحاء
إن ينقضى صبرى فليس بمنقض ... وجدى القديم بكم ولا برحائى
وحياتكم يا أهل مكة ،وهى لى ... قسم لقد كلفت بكم أحشائى
حُبيكم فى الناس أضحى مذهبى ... وهواكم دينى وعقـد ولائى

* * *

لـكنّ عزاءها أنها ذاهبة إلى رحاب الرسول الأعظم . ولها فيه أسوة حسنة .

عندما أمر بالهجرة قال وهو يودعّ مكة :

(اللهم كما أخرجتنى من أحب البلاد إلى فأسكنى فى أحب البلاد إليك) .

* * *

---

(١) هذه المواضع كلها ذكر العلماء أن الدعاء فيها مستجاب .
ذكر الحسن البصرى خمسة عشر موضعا ، وذكر غيره مواضع أخرى ، فبلغت جملتها ثلاثا وخمسين موضعا اندثر بعضها الآن .

المدرسة الأولى

فى حِجر أبيها ، ذلك الفاضل الجليل ، بل فى حجورٍ متعدِّدة من الحدَب والمحبة والحنان ، قضت الطفلة نفيسة الشطر الأوّل من حياتها ونشأتها الأولى ، حتى إذا بدأت تدرك وتعى ما ترى وما تسمع ، ألْفَتْ نفسها فى مدرسة من أبيها وأمها وأسرتها المتدينة ، يلقّنها الجميع أمور دينها ، ويصبّون فى أذنيها الصغيرتين أحسن ما تصب الأسرة الصالحة فى آذان أبنائها ، ويضعون تحت بصرها من صنوف القدوة أكرم ما يوضع لهم ، مما سوف يكون له أثر فى القابل القريب والبعيد .

كان هذا من ناحيتهم . أما من ناحية الطفلة السعيدة بأسرتها التى أذهب الله عنها الرجس وطهرها تطهيراً ، فإنها بما وهبها الله من ذكاء خارق وحافظة قوية كانت تستوعب كل ما تسمع وترى ، وتدخره لغدها .

وقد نشأت الطفلة محبة لأبيها الذى كان يُوليها حبه الجمّ وحنانه السابغ ، فكانت رغبتها فى الاستماع إليه والاستفادة منه معادلة لرغبته فى إسماعها ما يفيدها يشجعه على ذلك ما يلمسه فيها من قابلية شديدة للتعلم ، ولفتات ذهنية تسترعى النظر .

وتفتّح قلبها الصغير . فأخذت تقلّد أباها وأمها فى صلواتهما وعباداتهما ، على

قدر طاقتها وإدراكها ، وكثيراً ما كان الأب الحنون يذهب إلى الطواف حول الكعبة ويده فى يد ابنته الصغيرة هذه استئناساً بها وتدريباً لها ، وهى فرحة معتزة بهذه الصحبة .

ولعلها سمعت من أبيها تاريخ جديها السبطين ، الحسن والحسين ، وأمها الزهراء وأبيهما البطل المغوار ، صاحب ذى الفقار ، وما اقتبسوا جميعاً من رسول الله ، من أنوار ، وما أخذا عنه من شتى الفضائل والمكرمات ، فى صياغة وعبارات تتلاءم مع مداركها الصغيرة النامية . وتستقر فى قلبها وذهنها المتفتحين تفتح الزهرة .

أحسبها سمعت كثيراً من ذلك . مما لم يضنّ به عليها وهو يرى بعين فراسته أن ابنته هذه سوف يكون لها شأن بين الصالحين والصالحات ، وأنها سوف تضيف مجداً جديداً إلى أمجاد الأسرة يزداد به شأنها سناً وسناء ، عند الله والناس وأنها ستكون علماً لها ، بل علماً من أعلام الطريق . . طريق الله .

— أقول أحسبها سمعت كثيراً وقلبها ينبض نبض المحبّ الراغب فى التأسّى كلما سمعت عبارة أو إشارة ، إلى طاعة الله وعبادته ، وذكره وشكره .

ثم يمتد البصر قليلا فى حديث الأب الكريم حتى يبلغ خديجة الكبرى ، جدتها المسلمة الأولى ، ثم يرتد ليقف على بعض الصالحين من أهل البيت ، ومن الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ممن يمكن أن تسمح المرحلة الأولى من مدرستها المكية ، بالتحدث عنهم ، فى شرح مبسط لمعنى الصلاح والتقوى يغريها بحبهما وحب الصالحين .

لقد بدا لها أولئك الصالحون كالأنجم الزهر فى الليلة الظلماء .

ولعلها حدثت نفسها بأن تعمل على غرارهم وتنسج على منوالهم ، حتى تصبح مثلهم ، نجمةً ثاقبة .

ولعل قلبها الطاهر الصافى منّاها بتحقيق ذلك فانبسطت أساريرها .

ولم لا ؟ أليسو بشراً مثلها ؟ وباب الله مفتوح للجميع ؟ وهل الأمر إلا أمر عزم . وعلى قدر أهل العزم تأتى العزائم ؟

بلى إنه لكذلك وأيم الله .

ما كانت تلك الدروس وما أثمرت فى نفسها من ثمرات سوى البذور الأولى لأرض طيبة كُتب لها بقلم القدرة فى اللوح المحفوظ أنها أرض جمة الخيرات والبركات .

وقد أثر عن الطفلة نفيسة فى هذه المرحلة من حياتها المترعرعة ، أنها كانت تؤدى الصلوات الخمس بانتظام ، مع والديها فى المسجد الحرام . وهى فى السادسة من عمرها .

وأنها بين السادسة والسابعة تعلمت القراءة والكتابة ، ولم يكن فى زمنها ولا بيئتها من فعل ذلك فى مثل سنّها . إذ كانت الأمية شائعة غالبة فى البنين والبنات .

وأنها استطاعت من هذه السنّ المبكرة أن تتلو القرآن الكريم من المصحف الشريف بمفردها ، ثم تعمل على حفظه حتى تم لها ذلك فى خلال سنة واحدة فقط ، واستطاعت بعد هذا أن تتعبد به تعبداً روحياً ، بالإضافة إلى غيره من أنواع العبادات الأخرى التى عُلمتها .

وأخذت — وهى تنمو جسما وعقلا وروحاً — تصوم النهار وتقوم الليل وتمعن فى عباداتها وتوغل كلما تقدم بها العمر واستشعرت لذة العبادة .

ثم تبكى متعلقة بأستار الكعبة ، وهى تقول (إلهى وسيدى ومولاى : متعنى وضاعف فرحتى برضاك عنى ، فلا سبب لى أتسبب به يحجبك عنى) .

وقد يدرك القارىء اللبيب بعقله ، النضج الباكر فى هذا الدعاء الحار ، والثقة بالنفس فى سلوكها مع الله .

وقد يدرك أيضاً بوجدانه أنها تناولت الكأس وبدأت ترتشف منه !

* * *

فى رحاب الرسول

فى أحضان أنس روحى جديد ، لا يقدر على الإحاطة بوصفه قلم مادى ، فالمادة لا تحيط بالروح ، استقرت السيدة نفيسة .

استقرت فى بقعة من الأرض ، إليها يأزِرُ الإيمان(١) ومن سمائها تسحّ فيوضه . . . أرض فيها مثوى رسول الله ، ومسجده الذى يتضاعف فيه أجر الصلاة ، كما يتضاعف أجر العبادات كافة فيها . . . وفيها ذكريات جليلة حائمة ، وأرواح عالية سابحة هائمة .

استقرت هنا لتستمتع بجوار الرسول الأمين ، وصحبه الغر الميامين . وجوار صرح شامخ ناطق من التاريخ الإنسانى ، قليلٌ من لبناته من مادة الأرض . أما كثيرها فمن مادة السماء .

هنا حيث تطوف روح الرسول لتفيض على المقيمين والزائرين بركات منه وإلهامات ، امتداداً لرسالته الخالدة المستمرة فى عالم البرزخ ، بالهداية للبشر ، أحياءً وأمواتاً .

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الإيمان ليأزر إلى المدينة كما تأزر الحية إلى جحرها » .

هنا . فى دار الهجرة ، أقامت وهى لا تدرى أن إقامتها فيها موقوتة ، وأن الله يريد لها بعد ذلك هجرة أخرى إلى بلد آخر تتم لها فيه رسالتها .

كان عمرها حين قدمت المدينة عشرين عاما .. عشرين عددا . لكنها عشرون مباركات ، مضاعفة ، حصيلتها من العلم والتقوى وهما ركيزتا المعراج إلى الله فى الدنيا والآخرة .

لقد ثبتت قدميها على الركيزتين فى المدرسة المكية أو الجامعة المكية . وإنها لمكملة ما بقى من أهدافها فى طريق الله ؛ فى جامعة المدينة . ولهذا سنجدها هنا عاملة ناصبة ، يأتيها العون من كل مكان .

إنها لا تزال ظمأى ، وتبغى المزيد من الرى .

يقول يحيى بن معاذ (يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من أربعة أشياء : استماع الحكمة . والفرح بالله . والتلذذ بقراءة القرآن . والاستشفاء من البكاء) وهذا هو شأن السيدة نفيسة ، رضى الله عنها ، وذلك هو ديدنها إلى أن لحقت بربها .

حكى الحافظ أبو عبد الله بن برعش النسابة فى كتابه «تحفة الأشراف» أن زيد الأباج جد السيدة نفيسة رضى الله عنهما كان يأخذ بيد ولده الحسن الأنور (والد السيدة نفيسة) ويدخل إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم ويقول .

(ياسيدى يارسول الله : هذا ولدى الحسن أنا عنه راض) ثم يرجع وينصرف فلما كان فى بعض الليالى نام زيد فرأى المصطفى صلى الله عليه وسلم . وهو يقول له (يازيد . إنى راض عن ولدك الحسن برضاك عنه . والحق سبحانه وتعالى راض عنه برضاى عنه) .

فلما نشأ الحسن وجاء بالسيدة نفيسة إلى المدينة كان يأخذ بيدها ويدخل بها إلى القبر الشريف ويقول (يارسول الله . إنى راض عن ابنتى نفيسة) ويرجع . فما زال يفعل هذا حتى رأى صلى الله عليه وسلم فى المنام وهو يقول له : (ياحسن. أنا راض عن ابنتك نفيسة برضاك عنها . والحق سبحانه وتعالى راض عنها برضاى عنها) .

* * *

وفى حياتها المباركة حجت ثلاثين مرة أكثرها ماشية على قدميها . كما كان بعض كبار الصالحين يفعلون ، إذ يستحون أن يفدوا على الله راكبين ؛ وكان منهم الحسن السبط رضى الله عنه . قال « إنى لأستحى من ربى أن ألقاه ولم أمش إلى بيته » فمشى عشرين حجة — وفى رواية خمسا وعشرين حجة — وإن النجائب لتقاد بين يديه .

وقالت زينب بنت يحيى المتوج : خدمت عمتى السيدة نفيسة أربعين سنة فما رأيتها نامت بليل ولا افطرت بنهار. إلا العيدين وأيام التشريق فقالت لها : أَمَا تَرْفُقِين بنفسك ؟ فقالت : كيف أرفق بنفسى وقدّامى عقبات لا يقطعهن إلا الفائزون ؟ وعنها أنها قالت « كانت عمتى تحفظ القرآن وتفسيره. وكانت تقرأ القرآن وتبكى ».

* * *

وجدتْ السيدة نفيسة فى المدينة بواعث الإقبال على العلم وملهمات الإيغال فى العبادة متوافرة ، فأقبلت عليهما ولزمت المسجد الشريف لا تبرحه .

إن هنا روح الرسول . المعلم الأول . والهادى الأول ، تغذى الراغبين فى العلم والهـــدى .

وهنا صحابة الرسول وتابعوهم أحياء فى آثارهم ووقائعهم، وإلهاماتهم وإيحاءاتهم ، كلهم صيد بها ليل .

ها هو البقيع . كل أهله يتكلمون. وإن كانوا صامتين. لـكن الصم لا يسمعون.

هنا فى المدينة العلم . العلم الذى قال عنه الامام الشافعى ، « العلم علم الأديان . وعلم الأبدان » وقال أحد شراحه « ما أحسن ما قال الشافعى : علم الأديان هو علم القلوب والحقائق والمعارف. وعلم الأبدان هو معرفة. علم آفات النفوس والرياضيات وتقويم السياسات . وأحكام المجاهدات » .

* * *

ها هو ذا إمام دار الهجرة . مالك بن أنس رضى الله عنه (١) .

يتصدر مجلس العلم . وفى يمينه موطؤه . وحواليه العلماء وطلاب العلم، وفدوا على بحره الطامى من سائر الأقطار الإسلامية ليعبوا منه .

ينشر الإمام مالك العلم فى أرجاء المدينة ، ومن ارجائها ينساب إلى آفاق العالم المتعطش له .

وأحاديث مالك ودروسه ومجالسه كلها علنية . وإن أصداءها لتصل إلى السيدة نفيسه فتأخذ منها ما تضيفه إلى ما جاءت به من مكة، من سائر علوم القرآن والحديث ، لتصبح « نفيسة العلم والمعرفة » كما لقبت بحق من بعد .

لقد حفظت القرآن الـكريم كله ووقفت على أحكامه وأجادت تفسيره ، ووعت أحاديث الرسول ومعانيها وشروحها .

---

(١) هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك، وأنس بن مالك هذا هو غير أنس ابن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخذت الأيام تزيدها تمسكينا وإشراقا وقدرة على الاشتراك بالرأى والإفتاء فى مجالس الأئمة والعلماء الذين سيؤمون دارها فيما بعد، مفيدين مستفيدين. وإن كانت مظاهر روحانيتها سوف تطغى على مظاهر علمها أمام الجمهور الذى لا يتعمق.

وتوفى الامام مالك فى عام ١٧٩ ﻫ بالغا من عمره تسعين عاما. أى بعد أن قدمت السيدة نفيسة إلى المدينة المنورة باربعة عشر عاما، قضتها فى جوه وجو من معه، وجو كل جهبذ يمتّ إلى الشرفين فى وقت واحد: شرف العلم وشرف آل البيت.

واستمرت السيدة نفيسة بعد ذلك فى طريقها، طريق العلم والمعرفة، وفية له، كإحدى ركيزتيها كما قلنا من قبل، أو كأحد شقى حياتها، بنفسها المطمئنة الصافية، ودوافعها المستكنة العالية.

فلندع الآن هذا الشق يشق سبيله إلى النمو والازدهار، ولنلتفت إلى الشق الثانى، شق العبادات والطاعات والمجاهدات.

لكن يخلق بنا قبل ذلك أن نلقى نظرة عامة على ما حولها فى العالم الاسلامى من الحياة الروحية وما جدّ فيها.

إن الذى يؤرخ للسيدة نفيسة — رضى الله عنها — لا ندحة له عن نظرة كهذه، أو وقفة وإلمامة بهذه الحياة.

نحو حياة أسمى

نحن فى الثلث الأخير من القرن الثانى للهجرة حيث أخذ الانحراف الذى كان قد تسلل إلى المجتمع الإسلامى خفية ويستعلن وجهه . بعد الفتوحات الاسلامية ، تتسع دائرته ويعظم شأن ، ولم يكن الأمر ذا بال فى ابتدائه لكنه بدأ يتفاقم وينكشف الغطاء عن الخطر الكامن تحته ، على هذا المجتمع وعلى الوطن الاسلامى كله ، الذى كان قد انبسطت رقعته وترامت أطرافه .

ذلك على الرغم من أن صوت النبوة السماوى الهاتف بالدعوة إلى الله ، وإلى كل مايحبه ويرضاه ، كان لايزال قريب العهد بالناس، فما قرنٌ من الزمان ، بالشىء الكثير ولا قرنان ، فى أعمار الشعوب وفى خطاها .

فضلا عن أن كتاب الله باق قائم ، وكلمات الرسول وأعماله وسيرته باقيات . وفى كليهما تعريف صادق بالدنيا وحقيقتها ، وتبغيض فى التعلق بها وتحذير من شرائه فتنتها ، ودعوة حارة حازمة إلى إيثار الآخرة وإيثار العمل لها ، على العمل للأولى .

حبَّب الاسلام الآخرة للمسلمين ، وأطال فى التنبيه والتخويف من الإغراق فى حب الدنيا . وجاءهم القرآن الكريم بالكثير من الآيات فى هذا الصدد ، كقوله تعالى :

« واصبْر نفسَكَ مع الذين يدعون ربَّهم بالغدَاةِ والعشِيِّ يريدون وجهَه ولا تَعْدُ عيناكَ عنهم تريد زينة الحياة الدنيا »

وكقوله سبحانه : « وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها . وما عند الله خير وأبقى »

وقوله : « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون »

وقوله : « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » .

وقوله : « اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو . . إلى آخر قوله تعالى : وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور »

وقوله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »

ورسول الله صاحب هذه الأسوة لم يأل جهدا فى التحذير من مغبة الإفراط فى حب الدنيا. بل طالما تحدث عن هذا فى عبارات بليغة ، وطالما رفع للناس المصباح الأحمر ، مصباح الخطر ، لئلا يسقطوا فيما فى الدنيا من مهاوى مهلكات .

استمع إلى هذا الحديث الشريف ، يرويه أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم . .

قال : (يا أبا هريرة : ألا أريك الدنيا جميعها ، قلت نعم : فأخذ بيدى إلى مذبلة فيها رؤوس أناس وعذرات وحرق وعظام .

ثم قال عليه السلام . . يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص كحرصكم

وتأمل آمالـكم . ثم هى اليوم عظام بلا جلد ثم ستصير رمادا . وهذه العذرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذفوها من بطونهم . فأصبحت والناس يتجافونها . وهذه الخرق البالية كانت رياشهم وثيابهم .فأصبحت الرياح تصفقها . وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد .

فمن كان باكيا على الدنيا فليبك !)

ومن أحاديثه الشريفة قوله (إذا اراد الله بعبده خيرا زهده فى الدنيا ورغبه فى الآخرة)

وفى حديث قدسى :

« أوحى الله إلى داود : أن مثل الحياة الدنيا كمثل جيفة اجتمعت عليها الـكلاب يجرونها . أفتحب أن تـكون كلبا فتجر معهم .

ويروى أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرآها فى صورة عجوز شوهاء . عليها من كل زينة . فقال لها : كم من الرجال تزوجت ؟ فقالت .لا أحصيهم . فقال لها : أيطاقونك أم يموتون عنك ؟ فقالت . بل قتلت كلهم.

فقال عيسى عليه السلام عجبا لأزواجك الباقين . كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين (١)

---

(١) وشبيه بهذا التشبيه ، وهو من وحى النبوة المحمدية ومن نفس النبع السماوى الصافى ما يلى .

استعمل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، النعمان بن مقرن ، وكان رجلا عفاً تقياً ، على منطقة اسمها (كسكر) لجمع الزكاة من إهلها وهى شىء كثير ، ولا رقابة عليه فلا سجلات ، ولا وثائق ، ولا شىء مما يدل على المتحصلات .=

وكان رسول الله يقرن القول بالعمل ليقدم للمسلمين تلك الأسوة الحسنة ، فعاش فقيرا ومات فقيرا . وهو يقول اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكيناً وأحشرني في زمرة المساكين .

وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها : « كان يأتي أربعون ليلة مايوقد في بيت رسول الله مصباح ولا نار » .

وهو الذي يقول فيه البوصيري بحق :

وراودته الجبال الشمُّ من ذهب عن نفسه فأراها أيَّما شَمَمِ

وجاء بعد كلام الله وحديث رسوله وعمله ، الصحابة الذين اتخذوا من رسول الله قدوة فقالوا قوله وعملوا عمله .

إليك كلمة من كلمات الأمام على الرائعة ، يعبر بها ببلاغته المعهودة ، عن شعور الصحابة ونظرتهم إلى الدنيا . وفي هذه الكلمة الغناء والكفاء .

وقف الإمام . . كرم الله وجهه ... في إحدى الليالي في محرابه ، قابضاً على لحيته ، يتململ تململ الملسوع ويبكي ويقول :

« يا دنيا إليك عني ، غرى غيري ، ألي تعرضت أم إليَّ تشوقت ؟ هيهات ! لقد باينتك ثلاثا . إني طلقتك طلاقا لارجعة فيه فعمرك قصير ، وخطرك حقير ، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق » .

= رأى النعمان المال الكثير والدنيا تتزين له . وتراوده فاستعصم وتماسك . . ولكن للمال إغراءه وغواشيه . فاستعاذ بالله من هذه الفتنة ، وكتب إلى عمر . (إن مثلي ومثل كسكر كمثل رجل شاب عنده مومسة تتلون له وتتعطر ، وإني أنشدك الله لما عزلتني عن (كسكر) وبعثتني في جيش من جيوش المسلمين أجاهد معه في سبيل الله) فاستجاب له عمر رضي الله عنهما .

لـكن تيار الانحراف كان قد بدأ يتكون . ويقوى ، وأخذ المسلمون ينحون نحواً جديداً فى حياتهم وسلوكهم مع أنفسهم ومع بعضهم ، ومع الله !

ولا شك أن الدولة الأموية كانت مسئولة عن ذلك إلى حد كبير بيد إنه كان من لطف الله ورحمته بالإسلام والمسلمين أن قيض لهذه المرحلة الخطيرة رجالا أعزة أشداء على الانحراف والمنحرفين ، رفعوا العَلَم ، عَلَم الزهد ، وحب الآخرة والعمل لها ، والدعوة إلى الإعراض عن الدنيا ، فى أصوات ذات قوة ورنين ، لم تصلح لذلك الظرف فحسب ، ولـكنها ظلت صالحة إلى اليوم ، وستظل صالحة إلى ماشاء الله كلما اشتد الـكلبة على الدنيا .

كان الحسن البصرى(١) من أوائل الدعاة . فى القرن الأول. إلى الزهد والورع آخذا عن الأمام مالك ، حينما أحس بالخطر المقبل . فأعاد إلى الأسماع والقلوب تعاليم الإسلام ، وعقد مجالس الذكر ، فى طائفة من صفوة الأتقياء . ومن هؤلاء استمد الزهد شبابه الأول. وكان يقول (مارأيت رجلا طلب الدنيا فأدرك الآخرة) .

وكان يحلف بالله ويقول : إنه ما أعزَّ أحدُهم الدرهم إلاّ أذله الله وتلاه غيره وغيره من الدعاة إلى الزهد وعلى رأسهم بعض آل البيت ، بل كان من هؤلاء من سبق الجميع فى ذلك ضاربا الأمثلة العملية الحية للناس .

وتتابع المتحدثون فى مختلف البلاد الاسلامية حيث وجد انحراف ووجد دعاة صادقون يقفون فى وجهه خوفا على الاسلام أن يضيعه قوم دنيويون نفعيون .

وأخذ ركب هؤلاء يتحرك كما تحرك الركب المنحرف فكان بينهما صراع

---

(١) توفى الحسن البصرى فى عام ١١٠ هـ

وربما تطرف بعض الزهادفالجأوا إلى الكهوف والمغارات، والمقابر،وربما هام بعضهم فى الصحارى والجبال وسواحل البحار . فراراً من الناس ودنياهم أن تفتنهم كما فتنت غيرهم فتطرفوا فى افتنانهم ، وأسرفوا فى الاستجابة للأهواء والشهوات .

وانتشر الزهد وأعان على ذلك نشوب حروب أهلية داخل بعض الأراضى الإسلامية ، واندلاع فتن وخصومات ، وسلوك بعض الحكام مسالك القسوة والجبروت مع المحكومين .

وكان الزهاد يقصدون إلى إحياء الروح وتزكيتها ، وتحصيل المعرفة . وكان من الرعيل الأول أبو هاشم الكرخى المتوفى فى عام١٥٠ هـ . وهو إن يكن تقدمه رجال كان لهم قدم صدق فى الزهد والورع وحسن التوكل فإنه كان أول من تسمى بالصوفى .

وظهر ابراهيم بن أدهم ، وداود الطائى ، والفضيل بن عياض ، وشقيق البلخى ورابعة العدوية وبشر الحافى .

كذلك ظهر على طريق الزهد معروف الكرخى الذى كان الإمام أحمد بن حنبل يختلف إليه كثيرا ويقول عنه :(عنده أصل الدين ومخ علوم التقى والحكمة) وسرى السقطى وأبو سليمان الدارانى وسفيان الثورى وذو النون المصرى الذى يقال بأنه تتلمذ على الإمام مالك ، والذى كان الخليفة المتوكل يقول عنه وهو يبكى إذا ذكر الزهد والورع بين يديه (إذا ذكر أهل الورع فحيهلا بذى النون) وكثير غيرهم.

وإنك لتجد فى تاريخهم وأساليب زهدهم كل عجب فهذا صائم مواصل لا يفطر إلا مرة واحدة كل ثلاثة أيام مثل بشر الحافى . وإذا سئل بأى شىء يأكل الخبز قال : أذكر العافية فأجعلها إداما ! ! »

. وهذا آخر كان إذا لم يجد الطعام الحلال يأكل التراب كابراهيم بن أدهم . قيل عنه أنه مكث شهرا يأكل الطين . وقد كان قبل زهده أحد أبناء الملوك !

وهذا ثالث لم ير مضطجعا إلا فى مرض الموت مثل سرى السقطى .

وهذا رابع تقوم ثيابه حتى النعل فلا تساوى إلا درهما ودانقين . كسفيان الثورى .

وهذا خامس يقال له أما تشتهى الخبز ؟ فيقول أخاف أن يضيع علىّ قراءة القرآن . كداود الطائى .

وهذا سادس ، وسابع ، وثامن إلى عشرات ، وعشرات !

وتحسبهم غير سعداء وأنت تنظر إلى نحولهم وثيابهم ، وهم فى الحقيقة يتقلبون فى أنواع مختلفة من السعادات الروحية .

وتستعرض أقوالهم فكأنك تتنقل بينها كما تتنقل على موائد مليئة بصنوف مختلفة من الفواكه . لكل فاكهة طعم ومذاق . وإن شئت نماذج منها فإليك ما يلى :

- من علامات صدق الزهد — عند شقيق البلخى — أن تفرح بكل شىء فاتك من الدنيا . وتغم لكل شىء حصلت عليه منها !

- ويقول ذو النون « لاتسكن الحكمة معدة ملئت طعاما . »
ويقول : ماشبعت من طعام إلا عصيت ربى أو هممت بمعصية »

- ويقول الفضيل : لو أن الدنيا عرضت على بحذافيرها ولا أحاسب بها لكنت اتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذ مربها أن تصيب ثوبه .

- وقال معروف الكرخى غفر الله لى بلزومى الفقر ومحبتى للفقراء.
- وقال سليمان الدارانى : لا يزهد فى شهوات هذه الدنيا إلا من وضع الله فى قلبه نورا يشغله بأمور الآخرة .

* * *

هكذا كانوا يقولون . يقولون بأفواههم ما فى قلوبهم . مصبحين وممسين ، وعشياً وحين يظهرون ، لا ينفكون ولا يفترون . محدثين دويا متجاوب الأصداء . فى مختلف البلاد الاسلامية .

أما السيدة نفيسة رضى الله عنها فانها كانت تؤمن بمنهج الزهد وتمارسه ، وتعمل به على بصيرة ، فى غير قول أثر عنها كما أثر عن الآخرين ، بل كان عملها هو لسانها الناطق .

كان أمامها فى طريق الزهد هو رسول الله الذى أحاطت بسيرته ، وكان مرشدها هو ما قال الرسول وما فعل .

كان الهدى النبوى هو نبراسها الذى تستضيىء به .

ولم تكن ، رضى الله عنها سلبية فى زهدها ، تقاطع الحياة وتهجرها وتعتزلها كما فعل بعض الزهاد . إنما كان هجرها للدنيا واقعاً على كل ما يعوقها عن الله وطاعته ومرضاته ، ويعوقها عن العمل لآخرتها والتزود لها .

كانت الآخرة وكان الموت نصب عينها . حسبها دليلا على ذلك حفرها قبرها بيديها وقضاءها فيه شطراً من وقتها كل يوم تستلهم منه العظات ، وتستوحى الصالحات !

ثم هى بعد ذلك زوجة ، وهى أم ، ترعى الله فى زوجها.وفى ولديها .

وهى ربة بيت تشرف عليه وتديره ، وتدبر بالرأى ما ضمّ من أهل ومن خدم .

وهى محبة للعلم والمعرفة . تأخذ منهما بحظها وتعطى منهما ما تشاء ، لمن يشاء .

وهى تجتمع بذوى الحاجات من الناس، تستمع إليهم،وإلى شكاتهم وأناتهم، وما مكنها الله من تحقيقه منها ، بيدها أو روحها ، فعلته .

وتزور وتزار . تزار حتى ضاقت دارها بالزائرين فى مصر ، فلم تشك منهم بل شكت من ضيق الدار ، حتى عوّضها الله بدار أرحب . كل أولئك وقلبها مع الله .

وما كانت لتنال الحب العظيم الذى نالته فى كل بلد حلت فيه وكل بقعة سكنتها، إلا لأنها كانت تعطى من قلبها وروحها أكثر مما يعطون .

كانت تعيش لغيرها ، وكانت بذلك إيجابية فى زهدها . كما كان زهد الرسول إيجابيا ، مثاليا فى إيجابيته .

وبهذا كانت بعيدة كل البعد عن السلبية التى يرمى بها الزهاد، لاسيما المتطرفون منهم ، حيث يقال عنهم إنهم بسلبيتهم هذه وباعتزالهم المجتمعات ، وانقطاعهم للعبادات إنما يعوقون الجماعة الإسلامية ، على صورة لا تتفق وروح الإسلام .

كان شعارها : الله أولا . والمجتمع ثانيا . وما كان للمجتمع فهو لله.
لله صلاتها ونسكها ، ولله محياها ولله مماتها .

قال الإمام أحمد بن حنبل الزهد على ثلاثة أوجه . (ترك الحرام ، وهو زهد

العوام ، وترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص ، وترك ما يشغل العبد عن الله ، وهو زهد العارفين) .. وهو زهد السيدة نفيسة رضى الله عنها .

وكان هدفها وهدف أولئك الزهاد واحداً وإن اختلفت الوسائل بعض الاختلاف ، كان هدفا واحدا هو صنع حياة أسمى من تلك التى يهبط إليها عباد الدنيا بالمجتمع الاسلامى ، وهو هدف لا شك فى إيجابيته واجتماعيته وسلامته .

وقد أفادت هذه الحركة التى عاصرتها السيدة نفيسة وهى فى المدينة المنورة بين عامى ١٦٥ و ١٩٣ هـ فائدة كبرى ، إذ استطاعت التمهيد لتكوين تيار قوى مضاد للتيار المنحرف .

وبذا تكون السيدة نفيسة قد أسهمت فى هذه الحركة العامة المباركة ، بمنهجها الخاص فى الزهد الإيجابى ، ولطريقتها العملية الصامتة ، وأعطت الشق الثانى من نفسها وحياتها وهو شق التقوى ، ما سعت له من رقى اتسق مع الشق الأول ـ شق العلم والمعرفة ، فارتقيا معاً بها إلى المنزلة العالية التى نالتها بجدارة عند الله . والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

إلى خليل الله

قالت زينب بنت يحيى المتوج فى السيدة نفيسة : إن عمتى نفيسة كانت تقرأ القرآن وتبكى وتقول : (إلهى وسيدى يسر لى زيارة خليلك إبراهيم عليه السلام) .

فلِمَ كان هذا الدعاء المستعبر ، وهذا الحنين الباكى ، لزيارة خليل الله ؟

ولِمَ بزّتْ غيرها فى شعورها هذا الفائض المتقد ؟ ؟ لقد علمتْ اسمه فى طفولتها وفى أوائل تعلمها الصلاة ، وهى توردُهُ على لسانها فى تشهدها ، فى كل صلاة .

ثم علمتْ من بعد أنه كان نبياً عظيما ، ورسولا كريماً من أولى العزم ، من الرسل ، وكان مثلاً أعلى فى قوة العقيدة ، وروعة الإيمان ، وجلال التضحية .
وأنه كان بطلا ، جاهد الكفر والكفار ، بقوة وشجاعة ، حتى ألقى به فى النــــار .

علمتْ أنه كإنسان ، إنما كان نموذجاً من النماذج البشرية الشامخة النادرة .
وأنه كرسول أعطى الرسالة حقها من التبليغ ، وماونى .

وعلمتْ أنه حين شاء الله اختبار يقينه وإيمانه ذلك الاختبار القاسى .. ذلك البلاء المبين ، فأمره بذبح ولده إسماعيل ، شمّر عن ساعديه لذلك ، فى غير تردد ولا تخاذل ، فكان نجاحه فيما امتُحن فيه وبه فى الذروة من درجات النجاح .

ولما مات أسكن الله روحه السماء السابعة ، كما ورد فى قصة الإسراء والمعراج على حين أسكن غيره من الأنبياء والمرسلين السابقين سموات أدنى .

وأراد الله أن يخلّد ذكره فى الحياة الدنيا ، إلى يوم القيامة ، فأورد اسمه فى مواضع شتى من التنزيل ، فى هالات مختلفة من التعظيم والتبجيل ، فمرة يقول الله تعالى عنه : (إبراهيم الذى وفّى) وأخرى يقول (إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب) وثالثة يقول (إن إبراهيم كان أمّةً قانتاً لله حنيفا ولم يك من المشركين . شاكراً لأنعمه ، اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة من الصالحين)

ومعنى [أمة] أنه كان يجمع فى نفسه من خلال الخير وأنواع الفضائل وصور الرضوان الإلهى ما يجتمع فى أمة .

ويقول جل جلاله (إنى جاعلك للناس إماما)

ثم يتوج الله رأسه بقوله (واتخذ الله إبراهيم خليلا)

وهكذا من هذه الأوسمة الإلهية التى حَلَّى الله بها صدره بين الخالدين ، فى العالمين.

ويريد الله أن يقلده الشرف الأعظم ، فيأمره وابنه اسماعيل ببناء الكعبة فيبنيانها (١) ويأمره بأن يؤذن فى الناس بالحج ، فيفعل ويدوّى صوته فى الآفاق ولا يزال يدوّى .

---

(١) قيل إن الكعبة بنيت مرات ، وقد اختلف فى عدد هذه المرات ويرجح بعضهم بناءها عشر مرات ، وهى بناء الملائكة ، وبناء آدم ، وبناء أبناء آدم ، وبناء خليل إبراهيم ، وبناء العمالقة ، وبناء جرهم ، وبناء قصى بن كلاب جد النبى صلى الله عليه وسلم ، وبناء قريش قبل مبعث الرسول وعمره إذ ذاك خمس =

علمتْ السيدة نفيسة كل أولئك عنه ، فلمع اسمه فى قلبها وأضاء .

وعلمتْ أخيراً ، أو قُلْ أوّلا ، أنه أبو الأنبياء ، أى أنه أبو أبيها محمد رسول الله وخاتم الأنبياء ، وأن له بشارة به كما ورد فى الأثر . وإذن فهو أبوها وجدها الأكبر(١) .

فكيف لا تُغرق فى حبه وتعظيمه ، وكيف لا تتوق إليه . ولم لا تملأ حنايا قلبها حنيناً إلى لقائه ، وتشوق لزيارته زيارةً فيها الوفاء لبعض ماله قِبلهَا من حقوق ، كواحدة من أمة محمد عليه السلام ، وكإحدى ذراريه ؟

= وعشرون سنة ، وبناء عبد الله بن الزبير ، وبناء الحجاج بن يوسف الثقفى .
ويقول بعضهم إن بناء إبراهيم هوالبناء الأول الثابت فىالكتاب وهوقول الإمام على ، وجزم به ابن كثير فى تفسيره .

وفى خلال القيام ببعض الزيارات فى العصرالعباسى حدث أن حج أميرالمؤمنين المهدى فى عام ١٦٠ هـ فجاءه عبيد الله بن عثمان وقال له : إن معى شيئاً لم يحمل إلى أحد غيرك . وكشف له عن الحجر الذى فيه أثر قدمى خليل‌الله عليه السلام . وهو الذى يزار الآن ويعرف بمقام إبراهيم . فسر المهدى بذلك وقبّله ، وتمسح به ، وصب فيه ماء وشربه .

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا دعوة ابراهيم عليه السلام حيث يقول (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) » .

وفى حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام :

« أنا دعوة إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورؤيا أمى آمنة » .

ويعتبر إسماعيل أباً العرب ، وليست له ذرية من الأنبياء ، غير سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

لقد كانت فى مشاعرها هذه المتقدة نحوه ، عظيمة من عظيم .

لـكن الشُّقّـة إليه بعيدة ، فلتدعُ الله لييسر لهـــا أمر زيارته . فدعت ، فاستجاب الله دعاءها . ويسر لهـا زيارته من المدينة مع زوجها اسحق المؤتمن . فزارت وعادت شاكرة حامدة ، ما أكرمها به . عادت مليئة الوفاض ، موسوقة الجنبات ، بالغوالى من البركات .

إن الناس ليفدون إلى مصر من أقصى المعمورة ليزوروا فراعنتها السابقين وما بنوا من أهرامات ومعابد وقلاع وما خلفوا من آثار أخرى ، وما هَدَى هؤلاء من ضلالة ولا أناروا من سبيل ، بل ربما زادوها ضغثاً على ابالة ، وطمساً على طمس ، أفلا نقوم نحن المسلمين بزيارة بطلنا العظيم ، أبينا وأبى الأنبياء ، وأحد الذين شرق بهم وجه الزمان ، لنقدم له التحية . ونحن ننحنى فى وصيده ، أمام عظمته ؟

ألاَ نِعم ما فعلت السيدة نفيسة رضى الله عنها ، ونعمت القدوة التى خلفتها .

وســـلام على إبراهيم . .

* * *

ولقد تخيلته يستقبلها ويودعها فى موكب من جلاله ووقاره ، ومديد عمره (١) وشتى بطولاته ، وسائر أمجاده الأرضية والسماوية ، فرحاً برؤية ابنته الوفية لذكراه فَـرَحاً أشد من فرحها به ، فعاطفة الأبوة والأمومة أقوى من عاطفة البنوة .

تخيلت ذلك وأنا أنظر منه إلى قابٍ متعلق بالله بكليته ، مُطَّرِح عنه ما سواه

---

(١) قيل إن عمره حين قبض كان مائتى عام . وفى رواية أخرى ١٩٥ عاماً وقد دفن عند قبر (سارة) فى مزرعة حبرون .

••

ولو كان ابنه الحبيب . قلب هو نمط من أنماط القلوب الربانية فى مثاليتها العليا .

تخيلت هذا المشهد ، فاستعبرت عيناى ؟ ؟

ذكرت السيدة نفيسة ، حالاً من أحوالها ، حين بلغت المزار ووقفت بين يدى جدث خليل الله . . قالت :

ما إن بلغت المقام الكريم والضريح العظيم حتى اجهشت بالبكاء ، بكاء السرور ، لتحقيق أمنيتى فى زيارة الخليل ثم جلست فى خشوع أقرأ من آيات الله ما ورد فى خليل الله .

ولما كانت قراءتى فى تدبر وتفكر وحشوع وخضوع ، أحسست حينئذ إحساساً يقرب من المادية ، أن الخليل أمامى ، وحينئذ خفق قلبى ، وخشع بصرى وقلت : (يا جدّى الأكبر . . جئت إليك بجسدى وروحى ، وقد جاءت روحى من قبلى . فهل أحظى برضاك ، وصالح دعاك . وتوجيهاتك الشريفة لى ، حتى أتعبد لآخر لحظة فى حياتى . وحينئذ سمعت صوتاً مجلجلا يقول (يا ابنتى يا نفيسة أبشرى فإنك من الصالحات القانتات . وإنك بإذن الله موفقة . إلا أننى أوصيك بأن تقرئى سورة المزمل وتتدبرى معناها . وستعلمين طرق العبادة التى لا مشقة فيها لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها . وأنت يا ابنتى تتعبدين إلى درجة الإرهاق ، الذى يُضنى جسدك . ومع ذلك تتحاملين على نفسك وتغرقين فى العبادة .

(يا ابنتى : اقرئى قول الله تعالى لرسوله الكريم : إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك . . إلى آخر سورة المزمل وقد جعل الله العبادة فى الليل اختيارية بعد أن كانت إجبارية لأن الله يعلم أن من عباده من يجاهد في سبيل الله ويسعى لنيل رزقه ولابد له من الراحة ليقوم بعمله

هذا . والجهاد عبادة والسعى فى سبيل الرزق عبادة . وإدارة شئون المنازل للسيدات عبادة .

اذكرى ذلك وارحمى نفسك . وأعطيها قسطها من الراحة . لتقوى على العبادة من غير إرهاق مؤلم : واعلمى أنك موفقة . وأنك مباركة . وأنك فى الصف الأول بين الصالحين والصالحات . وكونى فى جميع خطواتك القدوة الصالحة لغيرك ليقتدى بك من أراد الله له الخير والسعادة)

وحينئذ قلت يا جدى العظيم فقال (أستغفر الله) قلت (يا جدى الأكبر) سأنفذ هذه التوجيهات . وأرجو من روحك الطاهرة أن تهب روحى صفاء حتى أبلغ ما أتمنّاه لنفسى من القربى إلى الله . حتى ألقاه وهو عنى راض . وهذه هى أمنيتى التى لا أمنية بعدها .)

فقال (يا ابنتى أبشرى فإن الله قد استجاب دعواتك . ولن أنساك حتى نلتقى فى عالم الروح . فى عالم الخالدين ثم بين يدى الله رب العالمين ، يوم تجزى كل نفس ما عملت ، والعاقبة للمتقين)

هذه الكرامات .. وهذه الخوارق

بين الأولياء ، وغير الأولياء

بين الكرامة الربانية يكرم الله بها عبده ، وبين ما يسمى بكرامة وهى ليست بكرامة ، ولكنها مجرد وسوسة من وساوس الشيطان ، أو خطرة من خطرات النفس — فجوة واسعة ، يضلّ فى تبينّها كثيرون ، وما يضلون إلا لجهلهم وقلة محصولهم من المعرفة .

إن الكرامة الربانية هى حال أو أمر يخرق نواميس الطبيعة ، ويظهر على يد مَن صَلُح مِن الناس واستقام سيره ، واتقى الله ربه فى سره وعانه ، وانطبقت عليه الآية الشريفة (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) .

إنها من عمل الله للذين اتقوه وهى للأولياء كالمعجزة للأنبياء ، آية من الله ونعمة تظهر على يد من يصطفى من عباده ، ليتأملها الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض ومابينهن ، ويزداد بها إيمان المؤمنين وتقوى المتقين ، وقرب المقربين والله لايصطفى إلا من قام بحقوقه على الاستقصاء والاستيفاء .

وكل من كان عليه للشرع اعتراض فهو مغرور مخدوع أو مخادع .

وقد ظهرت الكرامات فى واقع حياة الناس ظهورا واضحا منذ كانت حياة

دنيوية على كوكب الأرض فيها مؤمنون صالحون متقون، فإنكارها اجتراء صارخ على الواقع ، وعلى التاريخ البشرى ، وعلى كلام الله وحديث رسوله ، وعلى العقول السليمة التى سلمت بها فى الماضى والحاضر .

فأما فى القرآن ففى قصة عرش بلقيس ونقله من اليمن إلى فلسطين فى طرفة عين ، وفى قصة الخضر مع موسى عليهما السلام .

وأما فى حديث الرسول ففى قصة الثلاثة الذين آووا إلى غار فى جبل فانحدرت صخرة سدت باب الغار عليهم ، فدعوا الله بصالح أعمالهم ، فاستجاب لهم ، فانفرجت الصخرة فخرجوا من الغار .

وهذا الانفراج كان كرامة لهم وأمراً خارقا للعادة لأنه حدث دون استخدام أية قوة محسوسة .

* * *

ولما كانت هناك خوارق تصدر من أناس متعددة ألوانهم ومذاهبهم وعقائدهم وصفاتهم وهى شبيهة بالكرامات وجب أن نميز بين ما كان منها كرامة صادرة من ولى أكرمه الله بها وأعزّه واختاره مظهراً لقدرته ، وبين ما كان منها مجرد خارقة من الخوارق لاصلة لها بالكرامة والولاية .

والميزان الذى توزن به كل خارقة تبدو للعين هو ميزان التقوى ، فحيث لاتقوى فلا كرامة ولا ولاية .

وقد اشتهر فى مصر ولبنان والشام فى أوائل القرن الحالى رجلان اسم ، أحدهما (سليم الطهطاوى) من صعيد مصر واسم الثانى (داهش) من لبنان كانا يأتيان من غرائب الخوارق ما يدهش عقول معاصريهم ويستلب ألبابهم .. لكن خوارقهما ما كانت لتنسب إلى ولاية ولا تسمى بكرامات ، لأنهما لم تكن تستمد مادتها من تقوى الله من ذلك المعين الطاهر .

وميزان التقوى وضعه الله حين قال (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وحين قال (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون) وتحقيق التقوى يكون بامتثال الأوامر ، واجتناب النواهى ، أو كما قال أحد المحققين : هى ألا يراك الله حيث نهاك ، ولا يفتقدك حيث أمرك ، فالتقوى هى أساس الكرامة وهى مصدر إشراقها ومصدر النور الذى أشار إليه أبو العباس المرسى فى قوله (إن الأنوار الظاهرة فى أولياء الله إنما هى من إشراق أنوار النبوة عليهم).

فجميع الذين تظهر على أيديهم خوارق ولم يكن سلوكهم سليما ، ولا خلقهم قويما ، ولم يكن سبيلهم سبيل المؤمنين . الصادقين المتقين ، ليسوا بأولياء ، ولا يا يصدر عنهم بكرامة ، ولو مشوا على النار، أو طاروا فى الهواء ، وكل من ادعى الولاية أو ادعيت له ، وهو لايؤدى فرائض الله ولا يجتنب المحارم ، بل يجيء بما مناقض ذلك فليس بولى لله أبداً ، بل ربما كان ولياً للشيطان .

ولو بلغ الرجل ما بلغ فى الزهد والعبادة والعلم وأتى ما أتى من الخوارق ، ولم يكن مؤمنا بالله ورسوله ، ولا هو متقيه ، فإنه ليس بولى أبدا كالأحبار والرهبان من علماء اليهود ، والنصارى والنساك من الهنود ، أولئك الذين يمشون على النار وهى فى أشد حالات الاشتعال ولا تمسهم بسوء ، واليوجيين وسائر المشركين والسحرة والكهان .

وفى حديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب . وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضته عليه . ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى . ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن

استعاذنى لأعيذنّه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ، ولابد له منه » .

وفى حديث آخر « يقول الله .. وإنى لأثأر لأوليائى كما يثأر الليث الحرِب» أى كما يأخذ الليث الحرب ثأره .

لقد آمن أولياء الله بالله ووالوه،فأحبوا ما أحب وأبغضوا ما أبغض.ورضوا بما يرضى به ، وسخطوا على ما يسخط ، وأمروا بما أمر ونهوا عما نهى ، وآمنوا برسوله واتبعوا النور الذى أنزل معه ، ظاهرا وباطنا ، فكانت لهم كراماتهم .

إن ولىّ الله صورة مصغرة من رسول الله ، أو هو رسول من غير وحى ، معجزاته هى كراماته ؛ لا تكذب ولا تمين .

* * *

هناك علوم قديمة هى فى طريقها اليوم إلى الانقراض ، ولكنها لم تنقرض تماما بعد ، كعلوم الرمل ، والزايرجه ،والكف، والفراسة ، والتقصى (١) ، والتنجيم ، والعرافة (٢) والعيافة (٣) .

هذه كلها تخرج الغرائب من ممارسيها لكنها ليست من الولاية فى شىء . ويجب أن يعرف الناس حقيقتها ولا ينخدعوا لها مهما كشفت أو جلبت من الغيبيات.

ويضاف إلى هذه فى البعد عن الكرامات والولايات التحدث إلى الأرواح

(١) هذا التقصى يسمى علميا عند الغربيين (سيكومترى) وهو نفسه ما يسمى عند العامة فى مصر بالأثر.وهو معرفة أحوال الشخص فى حاضره وماضيه ومستقبله عن طريق لمس أى متاع له وتقصى أثره على لوحة الفضاء والزمن .

(٢) العراف هو الذى يكشف ويحدّث عن المستقبل .

(٣) معرفة المستقبل عن طريق زجر الطير والفأل بأسماء الطيور وألوانها وأصواتها والطيرة .

من إنس وجن ، وسماع أصواتها ورؤيتها يقظة ، والتراسل الفكرى وقراءة أفكار الآخرين وهو ما يسمى علميا تلباثى (١) .

والعلاج الروحى وشفاء الأمراض حضوريا وغيابيا وجلب المجلوبات من أماكن بعيدة والجلاء السمعى والبصرى (٢) .

وكذلك جميع العلوم التنبؤية التى تتحدث عن المستقبل المحجب وشتى وسائل إدراك الغيب وأجهزته ومن هذه الأجهزة المجانين والمصروعون والمعتوهون والمرضى فى حالات معينة والقتلى المشرفون على الموت .

هذه كلها تمارس فى جميع أنحاء العالم . وربما مارسها فساق وملاحدة .

أرأيت كيف هى كثيرة تلك التى تفتح أبواب اللبس والادعاء ، لمن يشاء ؟ وقد أفضنا فى سردها ليكون القارىء على بينة منها .

---

(١) التلباثى هو إيصال تأثيرات من عقل إلى عقل آخر بعيداً عن مجارى الحس المعروفة . وفى الرسالة القشيرية عن أبى محمد جعفر الحذاء بشيراز . قال : كنت أتأدب بأبى عمر الاصطخرى فكان إذا خطر لى خاطر أخرج إلى اصطخر ، فربما أجابنى عما أحتاج إليه من غير أن أسأله .

هذه هى قراءة الفكر أو التراسل الفكرى الذى يمكن أن يتم بين اثنين متباعدين أو بين ثلاثة أو أربعة كل فى جهة ، يتحدثون معا بالفكر على ما بينهم من أبعاد شاسعة .

وقد أثبت علماء النفس علميا إمكان تبادل الشعور والعواطف والأفكار مع الغير عن طريق (التلباثى) .

ويقول بعض الصالحين أن التراسل الفكرى هذا هو لغة من اللغات المستعملة بين الأرواح فى عالم البرزخ بها يتبادلون الأفكار .

(٢) من الجلاء السمعى والبصرى ما يكون طبيعة فسيولوجية فى تركيب العين وتركيب الأذن كبعض الحيوانات التى تشاهد الأرواح . أى أنه ليس لأصحابها من فضل فى كسبها .

على أن الولى الصادق يمكن أن يأتى بأمور من ذلك القبيل كعمل جانبى من نشاطه الروحى ، وربما أتى به بغير شعور ولا إرادة ولا اختيار فتكون كرامة منه لأنه استمدها من تقواه ومن المقام الذى اقامه الله فيه وجعله موصولا برسول الله ، فى حين أن غير الولى يستمده كما قلنا من مصدر آخر بعيد عن الإيمان والتقوى ، له تعليله . ولولا ضيق المجال لتوسعنا فى ذلك أكثر مما فعلنا . وذكرنا تعليل كل خارقة ولو أننا أشرنا إلى بعضها إشارة خاطفة فيما مر من هذا الحديث على أن مالا يدرك كله ، لا يترك جله .

* * *

بين الولى ومدعى الولاية ، وبين عمل الأول وعمل الثانى ، حينما يتشابهان ظاهرا ، بعدما بين الماس والزجاج ، والذهب الإبريز والبنهرج . فإذا غم الأمر على طالب الحقيقة فليس سوى ميزان التقوى كما ذكرنا ، ينصبة ويستأمله ويعرف من لسانه الحق من الباطل ، والمدد الآلهى من المدد النفسى أو الشيطانى .

فى ضوء هذا الشرح المستفيض الذى ابتغينا به التنوير والتبصير، يمكن للقارىء أن يقرأ كرامات السيدة نفيسة رضى الله عنها فيما بعد ، وقد توافرت فيها الدلائل على صدق صدورها عن التقوى ، فى أعلى مستوياتها ، وعلى أنها تنطبق عليها الآية الكريمة (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون ..) .

وإنك لتلمس فى هذه الكرامات ، فضلا عن صدقها ، روح الكرم والبر والرحمة . تجدها — رضى الله عنها — تنفق بسخاء مما آتاها الله من فضل .. من القوى الروحية العظيمة التى تمتلكها ، وهى من رزقها السماوى الواسع .

وقبل أن نتحدث عن هذه الكرامات التى لن نحصرها ولكن نقدم منها نماذج فقط(١) ننشر فيما يلى فتوى شرعية صادرة من دار الفتيا فى مصر عن الكرامات وعن السيدة نفيسة وبعض كبار الأولياء والصالحين ، رضى الله عنهم أجمعين .

---

(١) ذكر الإمام ابن حجر أن لها نحو المائة والخمسين كرامة .

فتوى شرعية

فى كرامات الأولياء(١)

رقم ٤٣٦ من السجل رقم ٨

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية الأسبق رحمه الله تعالى ، والسجل المذكور طرف نجله سعادة أحمد مختار بخيت بك.

السؤال : ـ سأل حضرة عبد الجواد سيد إبراهيم المدرس بدرب الجماميز بالقاهرة حارة السادات رقم ٤ فى ١٩٤٠/٧/٢٤ م

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد بخيت المطيعى (رحمه الله تعالى) بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فقد حضر لدينا بعض المتمشيخين وجرى بيننا حديث فى موضوع؛ هل الأولياء لهم تصريف فيما يجرى فى الكون وفى الوساطة بين الله وعباده فى قضاء حاجاتهم ؟ فأقر ذلك الأستاذ بدعوى من مقتضيات كراماتهم وخالفته فى ذلك مستدلا بأن هذا الرأى يخالف صريح القرآن ونصوص الشرع ، فإن الله تعالى يقول (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب) ومعنى قربه من السائل أنه لا يحتاج فى إجابة دعواه إلى وساطة أحد من خلقه ، وإن ادعاء أن للأولياء تصريفا فى الكون

---

(١) مجلة عا الروح عدد سبتمبر سنة ١٩٤٨.

يقتضى أنهم شركاؤه فيما يقدره فى خلقه والله تعالى يقول : (ألا له الخلق والأمر) إلى غير ذلك مما يقتضيه ظاهر النصوص الشرعية فما رأى فضيلتكم فى هذا الموضوع ، نرجو إيضاح هذا الموضوع الخطير مدعمين رأيكم فيه بالأدلة والبراهين لنستنير فيه بثاقب رأيكم وغزير علمكم جعلكم الله سراجا منيرا ــ هذا وقد زاد الأستاذ على قوله السابق أن فى القطر المصرى سبعة لهم التصريف ، وعد منهم السيد البدوى والفرغل وإمامنا الشافعى والسيدة نفيسة فهل لهذا أصل فى الدين ؟

الجواب : ــ الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده .

اطلعنا على هذا السؤال ونقول : اعلم أن الله قال : ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) وقال تعالى : (الله ولى الذين امنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) فأنت ترى أن الله تعالى قد بين لنا أن له أولياء وأن هؤلاء الأولياء هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ، وبين حالهم فى الدنيا فقال (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى أنهم بلغ من أمرهم فى معاملاتهم وكافة شئونهم أن شيئاً مما قدر لهم لا يفوتهم ولا يحزنون على شيء قد فاتهم لأنهم يعلمون حق العلم أن كل ما قدره الله لهم وعلم أن يكون لهم لا بد أن يصل إليهم فلا يفوتهم منه شيء فهم مصدقون بالقضاء والقدر : فإن فاته شيء مما يطلبه لا يحزن على فوته لاعتقاده أنه لم يقدر له ولو قدر له ما فاته كما أن ما وصل إليه إنما وصل بقضاء الله وقدره ، فهو واثق بالله تمام الوثوق ولذلك وعدهم بأن لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، ووصفهم أيضاً بأنه يخرجهم من الظلمات إلى النور بسبب إيمانهم كما يشعر بذلك تعليق الحكم بإخراجهم بالإيمان الذى استفيد من الموصول والصلة .

فالولى شرعاً بمقتضى هاتين الآيتين هو من يتولى الله تعالى ويتخذه مولى له ، فيؤمن به ويتقيه ويمتثل أوامره ويجتنب نواهيه ويتولاه الله تعالى بأن يوفقه

فيخرجه من ظلمات الجهل إلى نور العلم فكل مؤمن له قسط من الولاية على قدر قسطه من إشراق نور الإيمان فى قلبه وتقواه أو شرح صدره للأيمان والإسلام. وإذن فكل مؤمن ولى، وإنما تختلف درجات الولاية على حسب اختلاف درجات التقوى . فمن المؤمنين من يتقى الخلود فى النار بأن يكون مؤمنا عاصيا ، ومنهم من يتقى دخول النار بأن يكون مؤمنا مطيعاً لله فى كل أعماله مراقباً له تعالى فى سره وجهره معتقداً تمام الاعتقاد أن الله تعالى معه أينما كان وأنه لا يكون فى شأن ولا يعمل من عمل إلا والله معه حين يفيض فى الشأن أو العمل راجيا ثواب الله تعالى خائفا من عقابه . وقد عرّف علماء الكلام الولى بأنه هو العارف بالله تعالى وصفاته ، المواظب على الطاعات والمجتنب للمعاصى المعرض عن الانهماك فى اللذات والشهوات فهو القائم بحقوق الله وحقوق العباد حسب الإمكان . ولذلك قال عبدالسلام : صاحب الجوهرة فى الولى إنه هو من تولى الله تعالى أمره فلم يكله إلى نفسه ولا إلى غيره لحظة أو الذى يتولى عبادة الله تعالى وطاعته ، فعبادته تجرى على التوالى من غير أن يتخللها عصيان وكلا المعنيين واجب تحققه حتى يكون الولى ولياً عندنا فى نفس الأمر اه وهذا الولى بالمعنى الأخص وهو المراد من قول صاحب الجوهرة .

وأثبتن للأوليــاء الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه

فهو الولى الذى تظهر على يديه الكرامة ــ وأما الولى بالمعنى الأعم فهو الذى يشمل كل مؤمن ويتحقق فيه المعنيان متى تحقق فيه الإيمان المنجى من الخلود فى النار سواء انضم معه الايمان والتقوى المنجيان من الدخول فى النار أم لا ــ بخلاف الولى بالمعنى الأخص الذى تقدم . وقال علماء الكلام : يجب الاعتقاد بأن للأولياء كرامة حال حياتهم فى الدنيا وبعد موتهم يوم القيامة . والمراد أنه يجب على كل مكلف أن يعتقد الكرامة أى حقيقتها بمعنى جوازها ووقوعها لهم كما ذهب إليه

جمهور أهل السنة، ومعنى الكرامة أمر خارق للعادة، عادة البشر غير مقرون بدعوى منبوة ولا هو مقدمة لها يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبي كلف بشريعة المصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح علم بها أو لم يعلم ، فتمتاز بعدم الاقتران المذكور عن المعجزة فلا تلتبس بها وينفى مقدمتها عن الإرهاص. وما يظهر على يد الأنبياء قبل النبوة كتظليل الغمام لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبظهور الصلاح عما يسمى معونة كما يظهر على يد بعض العوام المسلمين تخليصا لهم من المحن والمكاره وبالتزام متابعة نبي الخ عن الخوارق المؤكدة لكذب الكاذبين وتسمى إهانة - كبصق مسيلمة الكذاب فى بئر عذبة الماء لتزداد حلاوة فصارت ملحا أجاجا وبالمصحوبية بصحيح الاعتقاد الخ عن الاستدراج كما خرج السحر من جهات عدة - والدليل على حقية الكرامة كما قال الحموى فى كتاب (نفحات القرب والاتصال) نقلا عن سعد الدين التفتازانى فى شرح العقائد النسفية ما تواتر عن كثير من الصحابة ومن بعدهم بحيث لا يمكن إنكاره خصوصا الأمر المشترك وأيضا الكتاب ناطق بظهورها من مريم — يعنى على القول بأنها ولية لا نبية وهو الصحيح ومن صاحب سليمان صلوات الله وسلامه عليه اهـ وكذا قصة أهل الكهف . وفى رسالة السجاعى فى إثبات كرامة الأولياء ما نصه :

« دليل الوقوع ماجاء فى الكتاب العزيز من قصة مريم عليها السلام وولادتها عيسى عليه وعلى نبينا وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام من غير زوج مع كفالة زكريا لها عليه الصلاة والسلام ؛ وكان لا يدخل عليها غيره وإذا خرج من عندها أغلق عليها سبعة أبواب ، وكان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف اهـ على أن ما قصه الله تعالى علينا من قصة مريم قاطع فى ظهور الكرامة على يدها. فقد قال الله تعالى فى سورة مريم إكراما لها (واذكر فى الكتاب مريم) إلى آخر ما اشتملت عليه الآيات من خوارق العادات مما لا يستطيع أحد إنكاره وهى من الأولياء على الصحيح .

وأما الدليل على جواز وقوع الكرامات للأولياء بعد مماتهم فهو ما نقله الحافظ عبد العظيم المنذرى فى كتاب الترغيب والترهيب حيث قال عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ضَرَب بعض الصحابة خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم هى المانعة، هى المنجية من عذاب القبر ، رواه الترمذى — وقال حديث غريب اه من الحموى ومثله فى مشكاة المصابيح — وقد راجعنا الترمذى فوجدنا هذا الحديث فيه فى نسخة مطبوعة طبع بولاق وقال إنه حديث حسن غريب . وقال مُلا عِلى القارىء شارح مشكاة المصابيح نقلا عن ابن ملك : فيه دليل على أن بعض الأموات يصدر عنه ما يصدر عن الأحياء اه وقال الحموى عقب إيراده هذا الحديث فى كتابه المذكور آنفاً : وهذا دليل على وقوع الكرامة بعد الموت بتقريره صلى الله عليه وسلم حيث أقر قراءة الميت سورة الملك وقال :هى المانعة ، هى المنجية من عذاب القبر ، وتقريره صلى الله عليه وسلم دليل شرعى كما تقرر فى محله من كتب الأصول اه ، وبناء على ما ذكر قال العلامة التفتازانى كما نقله الحموى فى كتابه : إن مايظهر من الخوارق بعد موت الأنبياء يكون كرامة لهم لا معجزة فمن أطلق لفظ المعجزة فقد تسمح بخلاف كرامة الولى ، إذ لم تعتبر فى حقيقتها دعوى الولاية وقصد إظهار الكرامة ، بل الولى مظهر لها إذ هى كما تقدم : الأمر الخارق للعادة ، وهو الفعل الذى لا يدخل تحت كسب العبد واختياره ، بل هو حاصل بفعل الله والولى مظهر له — أى محل لظهوره — وفى هذا الأمر لا فرق بين حياة الولى وموته اه .

ومن ذلك تعلم أن ما يظهر من التصرفات على يد الأولياء لا يخالف صريح القرآن ، لأن هذا التصرف الذى ينسب للأولياء هو نوع من الكرامات وهو فعل الله وخلقه ، يظهره الله إكراماً لهم ، تارة بإلهام وتارة بمنام وتارة بدعائهم وتارة بفعلهم واختيارهم وتارة بغير اختيار ولا قصد ولا شعور منهم ، بل قد يحصل

من الصبى المميز ، وتارة بالتوسل إلى الله تعالى بهم فى حياتهم وبعد مماتهم مما هو محكىّ فى القدرة الإلهية ، ولا يقصد الناس بسؤالهم ذلك قبل الموت وبعده نسبتهم إلى الخلق والإيجاد والاستقلال بالأفعال ، فإن هذا لا يقصده مسلم ولا يخطر ببال أحد من العوام فضلا عن غيرهم — فصرف الكلام إليه ومنعه من باب التلبيس فى الدين والتهويش على عوام الموحدين ، فلا يظن بمسلم بل ولا بعاقل توهم ذلك فضلا عن اعتقاده ، وكيف بالكفر أو بمخالفة القرآن على من اعتقد ثبوت التصرف لهم فى حياتهم وبعد مماتهم حيث كان مرجع ذلك كله إلى قدرة الله تعالى خلقاً وإيجاداً إلى آخر ما أطال به الشيخ الحموى فى كتابه (نفحات القرب والاتصال) المطبوع تالياً لشفاء السقام للامام السبكى فى المطبعة الأميرية سنة ١٣١٨ هـ ، فما قاله ذلك الأستاذ لحضرة السائل حق — وأما ما زاده أخيراً بقوله : إن فى القطر المصرى سبعة إلى آخر ما قال ، فالتصريف الذى ينسب لهؤلاء السبعة هو عبارة إكرام الله تعالى لهم وإظهار خارق العادات لمن يتوسل بواحد منهم فى أى شىء من الأشياء التى تكون كرامة للولى ، وليس هذا التوسل ممنوعاً أصلا لما علمت مما تقدم من أن التوسل بالولى إنما يطلب من الله إجابة طلبه إكراماً لهذا الولى لاعتقاده أن هذا الولى أقرب منه إلى الله تعالى ، وهذا لا فرق فيه بين الحى والميت لما تقدم من أن الفاعل هو الله تعالى ، بل إنه بعد الموت أقرب منه حال الحياة الدنيوية ، لأن الروح بعد الممات غير مشغولة بتدبير شئون البدن — وهذا لا مانع من اعتقاده بناء على ما اشتهر عن هؤلاء السبعة من إكرام الله تعالى لهم بعد مماتهم كما يكرمهم حال حياتهم : ولكن لا يجب اعتقاد أن فلاناً بعينه ولى وأن الله أظهر الكرامة على يده ، فلم يقل أحد من العلماء بوجوبه على أحد بحيث يكفر جاحده ، بل يجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أية كرامة كانت من أى شخص كان على التعيين ولايكون بإنكاره هذا مخالفا لشىء من أصول الدين ، ولا مائلا عن سنة صحيحة ولامنحرفاً عن الصراط القويم فإنه لم يجىء فى الشرع إلا أشهدألا إله إلا الله وأن محمداً

رسول الله ولم يقل أحد بأنه جاء فى الشرع زيادة على ذلك وأن فلانا بعينه ولى الله : لـكن من ينكر أن لله أولياء معينين فهذا هو المخالف للقرآن ولإجماع أهل السنة وأما التوسط فى قضاء الحوائج فاليك ما كـتبناه فى مقدمة شفاء السقام للامام السبكى وهاهو نصه ص ١٤ (وكما جاز أن يتوسط حى فى قضاء مصلحة حى أو ميت والفعل لله وحده يجوز أن يتوسط روح ميت فى قضاء مصلحة حى أو ميت والفعل لله وحده . والأرواح باقية على الحياة وأفعالها فى عالم الملك إنما تظهر بواسطة البدن مادام حيا بالحياة الحيوانية فإذا مات وفقد الحياة الحيوانية بقيت نفسه وروحه على حياتها الملـكوتية وتعلقت بجسمه تعلقا آخر على وجه آخر يعلمه الله تعالى كما دل عليه نعيم القبر وعذابه ، فاذا كان الفعل فى الواقع ونفس الأمر إنما هو للنفس والروح والجسم آلة يظهر بها الفعل ،والروح باقية خالدة ، ففعلها باق وتصرفها فى أفعالها لا يتغير إلا بعدم ظهور الأفعال بواسطة البدن . فلا مانع عقلا أن يكون بعض أرواح الأولياء والصالحين بعد موت الأجساد سببا بدعائها وتوجهها إلى الله تعالى فى قضاء حوائج بعض الزائرين لهم المتوسلين بهم بدون أن يكون لها مدخل فى التأثير — وأى فرق بين التوسط بالأحياء فى قضاء الحوائج مع الاعتقاد لا فاعل أى لا خالق للفعل غير الله وبين توسط أرواح الأموات فى اعتقاد ذلك ؟

والقول بأن ملوك الدنيا إنما يحتاجون إلى الوسائط لجواز الغفلة عليهم عن حوائج الناس بخلاف العليم الخبير، سفسطة ظاهرة ، وتمويه على العقول، فإن الملك وسائطه واسطة فى قضاء حوائج الطالب من الله تعالى أن لا فاعل سواه فلو كان اتخاذ الواسطة شركا بعد اعتقاد أن المؤثر هو الله تعالى وحده لـكانت معاونة بعضنا بعضا فى قضاء المصالح شركا ـــ وهذا باطل بالضرورة لما يترتب عليه من بطلان الشرائع وفساد نظام العالم وعدم نسبة الأفعال الاختيارية إلى فاعليها فتبطل الحدود والزواجر

ويختل النظام ، فعليك بالإنصاف .قال المناوى فى شرح عينية ابن سينا فى النفس : قال الناظم فى كتاب زيارة القبور : تعلق النفس بالبدن عظيم جدا حتى أنها بعد المفارقة تشتاق وتلتفت إلى الأجزاء البدنية المدفونة ،فإذا زار إنسان قبر آخر وتغاضى عن العلائق الجسمانية والعلائق الطبيعية توجهت نفسه إلى العالم العقلى فتواجه نفسه نفس الميت وتحصل منهما المقابلة كما فى المرآتين فيرتسم فيها صورة عقلية بطريقة الانعكاس ويحصل لها بذلك كمال اﻫ) وبعد أن نقلنا عن الغزالى وابن حجر مايتعلق بذلك قلنا: فانظر إلى مانقلنا من كلام حجة الإسلام الغزالى وكلام ابن حجر لتعلم أن ما كتبوه ونشروه فى بعض الجرائد منسوبا إلى هذين الإمامين قد حرفة عن مواضعه الذين كتبوه (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) . ألم يعلموا أن زيارة القبور تارة يقصد بها الموعظة بالأموات وهذه تعم جميع القبور والأموات وتارة يقصد بها الاستمداد والتبرك بالمزور — وهـذا يختص بالانبياء والأولياء والصالحين ؟ ألم يعلموا أن الإنسان يتأثر بتصوراته وأن نفسه تحت قهر سلطان الوهم ؟ فكم من إنسان تحقق أن سيقتل لامحالة فتصور الموت واقعا به فمات بسبب ذلك قبل أن يقتل — كذلك إذا زار الإنسان مشهد الحسين رضى الله تعالى عنه، واعتقد أنه بمكان طاهر بين يدى ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم استولى عليه الخشوع والخضوع وامتلأ قلبه إخلاصا فيدعو الله مخلصا موقنا بالإجابة، خصوصا إذا اعتقد أن روح الحسين رضى الله عنه تسأل الله تعالى إجابة دعاء زائره أليس ذلك سببا فى إجابة الدعاء وقضاء حوائج الزائرين المخلصين والله هو المؤثر ؟ ولا نرى مسلما ولو عاميا يتوهم فضلا عن أن يعتقد أن لله شريكا فى خلقه ، فمهما اعتقد الزائر أن المزور أطهر منه روحا وأصفى نفسا بما أعطاه الله تعالى من الكمال الإنسانى وإن كان العوام لا يستطيعون التعبير عما تكنه صدورهم من حسن العقيدة وكمال الإيمان ـ (اللهم إيمانا كإيمان العجائز) فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ؟

من ثمارهم تعرفونهم

ونذكر هنا بعضاً من كرامات السيدة نفيسة ، وهى غيض من فيض ، ممّا فضّل الله به عليها ، يتفاوحْ فى محيطها كما يفوح الطيب من النّد ، وكما يسرى العطر من الزهر . . لا تتكلفه ، ولا تعرضه فى معرض الفخر والمباهاة ، وإنما يجىء عفوا صفوا ، من غير طلب أو معاناة .

١ — أنى لك هـــذا ؟

قال القضاعى : قيل لزينب بنت يحيي المتوج ابنة أخي السيدة نفيسة : ما كان قوت السيدة نفيسة ؟ فقالت : كانت تأكل فى كل ثلاثة أيام أكلة . وكانت لها سلة معلقة أمام مصلاها ، فكانت كلما اشتهت شيئا وجدته فى السلة. وكنت أجد عندها ما لا يخطر ببالى ولا أعلم من يأتى به ، فتعجبت من ذلك فقالت لى :

« يا زينب من استقام مع الله كان الكون بيده وفى طاعته »

* * *

لعل هذه الكرامة هى من بواكير كراماتها ، رضى الله عنها ، بعد تلك الاستقامة مع الله ، والتحقق بالعبودية له ، عبودية محضة ، لا رائحة لغيرية فيها .

يقول الله تعالى « ومن يتق الله يجعلْ له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » ويقول عن السيدة مريم « كلّمَا دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يا مريم : أنّى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله . . إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ورزق السيدة مريم هذا هو كرزق السيدة نفيسة ذاك . ومصدر كليهما التقوى .

فإن من ثمرات التقوى استفتاح مغاليق أرزاق السماء والأرض وبركاتهما .

(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحت عليهم بركات من السماء والأرض) .

والأرزاق التى تأتى عن هذا الطريق أنواع ، مادىّ كفواكه السيدتين مريم ونفيسة ، وهى من الكرامات ، ومائدة سيدنا عيسى عليه السلام ، وهى من المعجزات .

ومعنوى ، كالعلم بغير معلم ، والجاه بغير سلطان ، والأنس بغير أهل ، وروحى كنصر بغير جيش أو بقليل منه على أضعافه من العدو ، وشبع أو رىّ بغير طعام أو الشراب واستجابة لدعاء أو ضراعة وتوسل .

تلك من أرزاق السماء وبركاتها ، وأنها مكملة لأرزاق الأرض المادية .

يتقبل الله من المتقين تقواهم فينفحهم بتلك الهدايا والهبات الخارقة ، تثبيتا لهم واظهاراً لقدرته ، وشداً لعزائمهم ، واستحثاثا لهم على مواصلة السير إليه .

٢ ــ أفض بأذن الله

« عن سعيد بن الحسن . قال :

توقف النيل فى زمن السيدة نفيسة رضى الله عنها فقاق الناس وضجوا ، ثم جاءوا إلى السيدة نفيسة يسألونها الدعاء ، فلبت ودعت ، وأعطتهم قناعها فجاءوا به إلى البحر وطرحوه فيه ، فما لبث أن وافى وزاد زيادة عظيمة »

هكذا ورد فى بعض كتب السيرة القديمة عن مسألة الفيضان ، والحقيقة هى أنها جأرت بالدعاء بعد صلاة استسقاء ، فاستجاب الله الدعاء ونزلت الأمطار فى منابع النيل وفاض النيل بالخير والبركات .

٣ ــ إنى تبت إليك

طلب حاكم جائر إنسانا فى أمر تافه ، ليعاقبه ويعذبه ، فجاء الرجل إلى السيدة نفيسة واستجار بها ، فدعت له أن ينجيه الله من ظلم ذلك الظالم وقالت له « امض إليه فقد حجب الله تعالى عنك نظر الظالمين » فذهب . وأدخل عليه وأوقف أمامه مع الواقفين . فلم يره . فسأل عنه أعوانه :(أين فلان ؟)فقالوا هاهو إنه واقف بين يديك . فقال مالى لا أراه ؟ . إنى والله لا أراه .

وتكرر هذا . فقالوا له إنه مرّ بالسيدة نفيسة فدعت له أن يحجب الله عنه ظر الظالمين .

فقال الحاكم وهل بلغ من ظلمى أن يحجب الله عنى المظلوم بالدعاء ؟ يارب إنى تبت إليك .

فلما تاب ، وكان مخلصا فى توبته رأى الرجل واقفا أمامه مع الواقفين ؟ فقربه وأكرمه ، وتصدق على الفقراء والمساكين ، وبعث إلى السيدة نفيسة بمبلغ كبير. فقسمته صُرَراً ووزعته عن آخرها على المحتاجين .

٤ ــ من أجل قلنسوة

أورد ابن إياس القصة التالية . التى سجلها ضمن حوادث المائة العاشرة .

كانت بنت صغيرة تلعب مع الصبيان وعلى رأسها قلنسوة عليها بعض دراهم ودنانير .

فطمع صبى من الصبيان فى البنت ، فأخذ يستدرجها حتى دخل بها إلى مقبرة

من مقابر حى السيدة نفيسة وأنزلها فى مقبرة وذبحها وأخذ قانسوتها وهرب .

فأخذ أهل البنت يبحثون عنها ولا يقفون لها على أثر ولا خبر .

ثم ألهموا القبض على جميع الصبيان الذين اعتادت البنت أن تلاعب معهم ودفعوهم إلى الحاكم فأخذ يحقق معهم ويضغط عليهم ويهددهم حتى اعترف الصبى صاحب الحادث بما فعل . ثم أرشدهم إلى المقبرة . وَنزلوا القبر فوجدوا البنت ملقاة فى وسط دمائها لكن لا يزال بها رمق . وقد توقف نزف الدم. فحملوها وبادروا بعلاجها وخاط لها الطبيب موضع الذبح .ولم يزالوا بها حتى أخذ الله بيدها وتماثلت للشفاء .

وعندما بدأت تتكلم سألوها عما حدث فقصت عليهم قصة الصبى حتى الذبح . ثم قالت : ولما انصرف الصبى بعد ذبحى دخلت علىّ امرأة حسنة الصورة وقالت لى : (لا تخافى يا ابنتى ومسحت على محل الذبح وسقتنى فلما أفقت سألتها من أنت ؟ فقالت (أنا نفيسة) .

٥ ـــ أهل حى يشهرون إسلامهم

تزوج رجل من أهل المغافر بامرأة ذمية فجاء منها بولد . فأسر فى بلاد العدو. فأخذت المرأة تكد فى البحث عنه حتى أعياها الأمر وقصدت البيع تسأل عن الأسرى وابنها بينهم فيها دون نتيجة حتى يئست .

وأخيراً قالت لزوجها : بلغنى أن بين أظهرنا امرأة صالحة مجابة الدعاء ، يقال لها نفيسة بنت الحسن ، اذهب إليها ، فلعلها تدعو لولدنا فيعود إلينا فقد برح بنا غيابه الطويل . فإن جاء آمنت بدينها .

فجاء الرجل إلى السيدة نفيسة وقص عليها القصة فدعت له إن يرده الله عليه . وعاد الرجل إلى بيته .

فلما كان الليل إذا بالباب يطرق فخرجت المرأة فإذا بابنها على الباب . وبعد أن فرح الجميع بهذا الجمع . سألته أمه عن أمره فجعل يحدثها وأباه عن أمره وكيف عاد.

فقال : كنت واقفا يا أماه على باب المعتقل فى الوقت الفلانى (وهو الوقت الذى دعت فيه السيدة نفيسة) وأنا فى خدمتى . فلم أشعر إلا ويد وقعت على القيد وسمعت من يقول أطلقوه فقد شفعت فيه السيدة نفيسة بنت الحسن ، فأطلقت من الغل ثم لم أشعر بنفسى إلا وأنا على رأس محلتنا هذه فسرت حتى وقفت على الباب وطرقته فخرجت أنت .

وشاعت هذه الكرامة فى الحى فأسلمت المرأة واسلم معها عدد كبير من أهل الحى ، وصارت المرأة من خدام السيدة نفيسة اعترافا بفضلها وإيمانا ببركاتها وكراماتها .

٦ — قَدَمٌ تخوض الماء ولا تَبتَلْ

خرجت أمتها جوهرة فى ليلة ذات مطر كثير لتأتى لسيدتها نفيسة بماء للوضوء فأخذت تخوض ماء المطر المنهمر فى ذهابها وإيابها وعادت دون أن تبتل لها قدم .

٧ — مقعدة تمشى بأذن الله

كان فى جوار السيدة نفيسة يهودى له ابنة مقعدة .

فقالت لها أمها يوما : إنى ذاهبة إلى الحمام ، ولا أدرى ما أصنع بك فهل لك أن نحملك معنا ؟ قالت لا : قالت : هل تقيمين فى البيت وحدك ؟ قالت لا ولكن احملينى يا أماه عند هذه الشريفة التى فى جوارنا . حتى تعودين :

فدخلت اليهودية على السيدة نفيسة واستأذنتها فى المجىء بابنتها إلى دارها فأذنت . فجاءت بها ووضعتها فى جانب من البيت ومضت .

وحان وقت صلاة الظهر فأحضرت السيدة نفيسة ماء وتوضأت ، فجرى من مائها شىء إلى جانب الصبية المقعدة فجعلت تبل يدها منه وتمر به على أعضائها فزال عنها ما كان بها باذن الله وهبت تمشى وكأنها نشطت من عقال ، فلما جاءت أمها خرجت إليها ماشية فسألتها عن شأنها فأنبأتها بما حدث فعجبت وأسلمت وأسلمت معها أسرتها وأسلم من علم بالقصة من حيها .

وردت هذه القصة فى درر الأصداف وفى خطط المقريزى باختلاف بينهما يسير .

٨ — إلهى ما أرأفك بعبادك

كان لامرأة عجوز أربع بنات وكن جميعا يتقوّتن من غزلهن تجمع أمهن ماغزلن فى أسبوع وتمضى به إلى السوق وتبيعه ثم تشترى بنصف الثمن الذى حصلت عليه كتّانا وبالنصف الثانى ما يكفيهن من الطعام أسبوعا .

هكذا كن يقضين حياتهن صابرات شاكرات ، غير متبرمات .

وقد حدث فى يوم من الأيام أن أخذت الأم غزل بناتها وخرجت من دارها إلى السوق فى يوم جمعة كعادتها فى كل أسبوع . وبينما هى فى طريقها والغزل فوق رأسها ملفوفا فى قماش أحمر انقض طائر فجأة على رزمة الغزل واختطفها وارتفع ، ووقعت المرأة على الأرض مشدوهة وغشى عليها ، فلما أفاقت بكت على غزلها الذى ضاع وأخذت تتساءل وهى تذرف دموعها ماذا تفعل بأيتامها وبم تطعمهن أسبوعا ؟ واستمع الناس الذين تجمعوا حولها إلى قصتها المحزنة ، وأشار عليها بعضهم أن

تقوم وتمضى إلى السيدة نفيسة وتسألها الدعاء أن يفرج عنها مانزل بها من كرب عسى الله أن يزيل عنها ما بها ببركة إيمانها فمضت إليها وقصت عليها قصتها باكية فتأثرت السيدة نفيسة ورضتها وقالت :

« اللهم يا من علا فقدّر ؛ وملك فقهر ، اجبر من أَمَتِك هذه ما انكسر . فإنهن خلقك وعيا لك » .

دعت لها بهذا الدعاء وطلبت إليها أن تبقى فإن الله على كل شيء قدير ، فقعدت المرأة وبها ما بها من قلق على أولادها المرتقبات عودتها .

فمكثت غير بعيد . وإذا بجماعة قد أقبلوا واستأذنوا فى الدخول على السيدة نفيسة فأذنت لهم فدخلوا وتحدثوا إليها وقالوا إن لهم أمرا عجبا . وقالوا نحن من التجار كنا مسافرين فى سفينة فلما قربنا من بلدتكم اصطدمت سفينتنا بصخرة وانفتحت وأخذ الماء يدخل من هذه الفتحة ونحن نحاول سدها فلا تنسد ، فاستغثنا بالله تعالى ، وذكرنا ، وتوسلنا بك إليه أن ينقذنا من هذا البلاء الذى حم . . فإذا بنا طائر يطير فوقنا ويلقى علينا خرقة بها غزل . فوضعناها فى المكان المنفتح فانسد بإذن الله تعالى وببركتك وسلمنا وقد جئنا الآن بخمسمائة درهم فضة هدية شكراً لله تعالى فبكت السيدة نفيسة . وقالت « إلهى ما أرأفك وألطفك بعبادك » ثم نادت العجوز وقالت لها بكم تبيعين غزلك كل أسبوع ، فقالت بعشرين درهماً . فقالت لها . أبشرى فإن الله تعالى عوضك عن كل درهم خمسا وعشرين درهما ، وقصت عليها قصة التجار والسفينة والغزل ودفعت لها ذلك المبلغ فخرجت باكية من شدة الفرح وهرولت إلى أولادها . تنبئهم بما حدث . وكيف رد الله عليها غزلها ببركة السيدة نفيسة رضى الله عنها . وهذه القصة مسجلة فى أكثر كتب السيرة وذائعة فى حى السيدة نفيسة .

رأى السيدة نفيسة

فى الـكرامات

وفى حديث السيدة نفيسة رضى الله عنها عن الـكرامات قالت : شتان بين ، خدع الخادعين وتضليل المضللين من الناس ، وبين كرامات الأولياء الصادقين أولئك الذين يخصهم الله بتلك الـكرامات لتـكون برهانا على صدقهم ، وتـكريما لهم من الله ، ونورا يستضىء به من شاء أن ينسج على منوالهم ، ليصل إلى ما وصلوا إليه أو بعضه ، فباب الرحمة مفتوح دائما لعباد الله ، وطريق الطاعة للقربى منه ميسر لـكل من قهر نفسه وشيطانه ، وهما العدوان اللدودان اللذان إذا قهرهما عبد نجا وسار فى الطريق المستقيم ، متنقلا من نور إلى نور ، ومن مرتبة إلى أخرى ، حتى يلقى الله وهو راض عنه ، فتنعم روحه ويشع من نعيمها بعض الـكرامات لتهدى إلى سواء السبيل .

وليس عزيزا على الله أن يكرم أولياءه فى دنياهم وفى رزقهم ، جزاء ما اتقوا وجاهدوا وصبروا ، وقد تتجلى الـكرامات فى أرواحهم الطاهرة فى البرزخ أكثر مما تجلت فى حياتهم الدنيا ، حتى يـكون للـكرامة أثر أبلغ فيمن يلمسها أو يراها أو يسمع عنها ، فينشرح صدره ، وينكب على طاعة ربه .

وقد تـكون تلك الـكرامات بالإلهام أو فى رؤيا منامية . وإذا كان الولى فى

الدرجات العليا استطاعت روحه البرزخية أن تنطق وتهدى إلى مايخيل إلى الناس أنها انتقلت من باب الكرامات إلى باب المعجزات . إن ذلك على الله يسير .

ولايجحد كرامات الأولياء إلا من طبع الله على قلوبهم وأعمى أفئدتهم : فانها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

أما فيما يتعلق بما سماه الناس بكرامات لى[1]، فهذه ليست إلا من قبيل النوع الذى يقود إلى الطاعة والسير فيما يرضى الله ؛ حتى يصل من شاء الله له الهداية إلى منازل الصالحين . »

(١) الضمير للسيدة نفيسة فيما تحدث به عن نفسها .

الرعاية الروحية

يحسب بعضهم أن هذا الإنسان إذا جاء أجله وانتقل إلى الشاطىء الثانى من الحياة ، ونعنى به شاطىء البرزخ ، قبع هناك فى مكان منه لا يعدوه ولم يَعُدْ له شىء مما كان له فى دنياه، من حركة وسَعْى،حتى ينادى منادى القيامة. وذلك وهم وَضِلَّة !

إن الإنسان جسد وروح ، فإذا انقضى عهد التعاون بينهما افترقا ، وراحت تشق لها طريقا جديدة لسعى جديد ، فى عالم جديد ، على أساسٍ من كَسْب الماضى وحصاده . . ذلك الماضى الذى يلازمها ملازمة الظل ، ويحدد لها مقامها ومستواها إنْ رفعاً وإنْ خفضا ، وإنْ نعيما أو عذابا ، يتابعها حيث تتقلب ، وذلك لتُتمّ رسالتها فى الحياة بشقيها ، وتحقق شخصيتها ؛ وربما كان فى ذلك استكمال لمقامات أعدها الله لها قصرت عنها الحياة الجسمانية ، كما ورد فى بعض الآثار .

كانت الروح حبيسة فى جسد ، ومع أنها كانت رَهْن هذا المحبس كانت دائبة الحركة والسعى ، لا تفتر ولا تنام ، ولو نام الجسد ، وكانت تشتاق فى أعماقها إلى الفكاك من إساره لتنطلق فى رحاب السكون الفسيحة ، حنيناً منها إلى عهد غابر كانت حرة فيه ، قبل أن تعلق بالبدن وتدخل فى سجنه الضيق ، والحرية طلبة كل نفس ، فكيف يسوغ عقل عاقل أنها وقد تحررت تعود إلى سجن من السكون والجمود والتبطل فى غير حكمة ؟

وكيف يسوغ عقل أن الأرواح المفارقة لأبدانها منذ آدم عليه السلام كلها قابعة فى مكان ما لا حركة لها فيه ولا سعى ، فى عالم نابض ، كله حركة متصلة ، وذبذبات لا تنقطع ؟

كلا .

إنها تتحرك هناك وتسعى ، وسعيها شتى ، وحركاتها ألوان .

كل روح متنقلة تحمل فى حقيبتها ثمار ما زرعت على أرض الدنيا . كذلك تحمل معها جميع محتوياتها من عقائد وطباع وفضائل ورذائل ، لتعيش فيها هناك وتتخذ منها غلائل وكسى تتلاءم مع طبيعة الوطن الجديد .

* * *

ويقول اللقانى : من المحقق أنه ليس للأرواح ، سعيدها وشقيها ، مستوى واحد ، بل هى كما قال ابن القيم وابن حجر متفاوتة فى مقرها فى البرزخ ،ولا تعارض بين الأدلة فإن كلا منها وارد على فريق من الناس فمنها أرواح فى أعلى عليين وهم الأنبياء ، وهم متفاوتون فى منازلهم ، كما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، ومنهم أرواح فى حواصل طير خضر وهم أرواح بعض الشهداء ، تسرح وتروح فى الجنة حيث شاءت ، وبعضهم قد يحبس عنها لدين أو غيره ، ومنهم فى قناديل تحت العرش ، ومنهم فى حواصل طير كالزرازير ومن الأرواح من يحبس فى الأرض » .

* * *

وقد روى عن الإمام على رضى الله عنه أنه قال .

« المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه فى حوصلة طير أخضر . المؤمن

إذا قبضه الله صيرّ روحه فى قالب كقالبه فى الدنيا ، فيأكلون ويشربون فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة التى كانت له فى الدنيا » .

* * *

وقال الأبيارى فى كتاب (باب الفتوح) : ولعل المراد من جعل الأرواح فى حويصلة الطير لا ظاهر اللفظ ، فإن ذلك حبس وتضييق ، بل المراد أنه كناية عن سرعة حركات تلك القوالب والصور وتنقلاتها حيث شاءت كسرعة حركة الطير .

* * *

وأول ما يستشهد به ، فى نفى التبطل عن الأرواح حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال بعد أن استشهد جعفر الطيار :

« عرفت جعفرا فى رفقة من الملائكة يبشرون أهل بيشة (من بلاد اليمن) بالمطر » .

وهذا الحديث يدل على أن للأرواح المنتقلة عملا فى البرزخ، وسعيا لخير الأحياء فى الدنيا .

ويقول الشعرانى فى كتابه الجواهر والدرر :

« إن أرواح الأنبياء وأرواح الكمل باقية على الخدمة فى جنة البرزخ ، لكن خدمتها هناك دون خدمتها فى دار الدنيا ، وذلك لأن البرزخ له وجه واحد إلى طلب التكليف وهو الذى إلى الدنيا ، أما الوجه الآخر فهو إلى الآخرة ولا تكليف هناك » .

* * *

ويقول الشرنوبى فى شرح تائية السلوك :

« إن البرزخ ينسحب عليه حكم الدنيا فى الاستكثار من الأعمال الصالحة وزيادة الأجر . لأن الذى ينقطع بالموت هو التكليف . وأما أعمال الآخرة فهى على سبيل التلذذ لها » .

قال ذلك تفسيرا للحديث الشريف القائل « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

كذلك قال جمع من العلماء وهم يؤيدون العمل والسعى فى البرزخ : إن الاحتجاج بالحديث الشريف الأخير احتجاج ساقط وعزوا رأيهم بسجدة أهل الأعراف التى ترجح بها موازينهم . والتى يمكن أن تنهض دليلا على امتداد حكم التكليف إلى هذا المقام ومن هؤلاء الزرقانى ، والقسطلانى ، والرملى ، وعليش » .

وقد استدل الكثيرون من الحديث الذى نقله ابن مالك عمن سمع فى قبره وهو يقرأ سورة الملك على أن بعض الأموات يصدر عنهم ما يصدر عن الأحياء .

* * *

ويقول ابن القيم :

« والأرواح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وإخوانها وأصحاب عملها ، ولها بعد المفارقة صحة ومرض ، ولذة ونعيم ، وألم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير .

* * *

ويقول عبد الكريم الجيلى :

« إذا كانت الأرواح فى الدنيا على الخير كانت مطلقة على الخير فى البرزخ . وإن كانت فى الدنيا على الشر كانت مطلقة على الشر فيه .

وقال : « من الأرواح من عبادته شفاء المريض وجبر الكسر المهيض » .

* * *

ويقول ابن القيم أيضا : وليس أقوى من قوله هذا ولا أوضح ولا أفصح :

« لقد تظاهرت الأدلة من القرآن ، والسنة ، والآثار ، والاعتبار ، والعقل ، والقول ، أن الروح ذات قائمة ، تصعد وتنزل ، وتتصل وتنفصل،وتخرج وتذهب وتجىء وتتحرك وتسكن ، وعلى هذا القول أكثر من مائة دليل » .

ويقول ابن المبارك صاحب الابريز عن شيخه عبد العزيز الدباغ بعد وفاته : من أعظم بركات الشيخ الدباغ ومن أكبر علامات اعتنائه بنا بعد مماته أنى قد رأيته وأنا بين النائم واليقظ فما زال يكلمنى وأكلمه ، حتى طال الأمر بيننا ، وخرجنا إلى أبى حامد الغزالى فقال إنه قطب . وأمرنى بتعظيمه جدا » .

تلك نماذج من أحاديث القدامى وآرائهم فيما نحن بصدده من البحث وإلى القارىء آراء لبعض المحدثين .

يقول الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية سابقا فى مقدمته لكتاب شفاء الأسقام للامام السبكى :

« كما جاز أن يتوسط حي في قضاء مصلحة حي أو ميت ، والفعل لله وحده ،

جاز أن يتوسط ميت فى قضاء مصلحة حى أو ميت ، والفعل لله وحده . فالأرواح باقية على الحياة » .

ويقول الشيخ محمد حسنين مخلوف وكيل الأزهر سابقا : إن الروح تبقى فى البرزخ حية مدركة تسمع وتبصر وتَسْبَح سبحا فى ملك الله حيث أراد الله وقدر، وتتصل بالأرواح الأخرى ، وتأنس بها وتناجيها ، سواء أكانت أرواح أحياء أم أرواح أموات ، وقال أيضا :

قد تواترت الروايات الصحيحة والرؤى من أصناف بنى آدم على فعل الأرواح بعد موتها ، وأنها تقرأ القرآن وتصلى وتخبر أرواح الأحياء عند لقائها ، وتقضى حوائج الناس ، وأنها تقدر على مالا تقدر على مثله حال اتصالها بالبدن فى الدنيا من هزيمة الجيوش الكبيرة بالعدد القليل ، متمثلة وغير متمثلة . وظاهر أن هذا هو لبعض الأرواح التى يؤذن لها بذلك .

* * *

وحسبنا هذا القدر الذى أردنا به توكيد القول بما للأرواح بعد انتقالها من نشاط وحركة وسعى .

ولعل القارىء قد آمن بذلك بعد أن أصغى إلى أقوال من أعلام العلماء المسلمين الباحثين، ممن لا يرقى إليهم شك ، ولا بعد قولهم قول ، فكل منهم ثبت محقق ، وكلهم ثقاة يشار إلى علمهم بالبنان .

والأدلة العملية والشواهد الفعلية على صحة ما ذكرنا لا تحصى فعلى ألسنة الكثيرين أحاديث وحوادث ، وفى كتب الأولياء والصالحين ما لا يعدّ . مما لا يرتاب فيه إلا الذين لا يؤمنون بآيات الله، من الذين طبع الله على قلوبهم، وجعل

على أبصارهم غشاوة (وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) .

إن أرواح محبينا فى عالمها الثانى كثيرا ما تطل علينا ، وكثيرا ما تقدم لزيارتنا ، وكثيرا ما تمد لنا يد العون ، ونحن لا نشعر ، على قدر حبها لنا ، وبقدر همتها وإمكانياتها الروحية .

ولما كان للسيدة نفيسة رضى الله عنها جولات فى هذا الميدان الفسيح ، ميدان الرعاية الروحية ، ولها فيه قدم صدق ، فلا عجب أن يتخلل هذا الكتاب التاريخى إشارات إلى بعض مآثرها الصحيحة فى موضعها منه ، بعد أن أنزنا للقارىء طريقه ، وأريناه السبيل السوى.

إنها فى برزخها تفيض ، كما كانت تفيض هنا ، حيوية ومحبة ومن علاها تمد يدها ، وتهدى علمها ، وتبث إيحاءاتها للأحياء ، بالعمل الصالح ، والإقبال على طاعة الله ، والإيغال فى هذه الطاعة .

إنها كما تعيش فى قربها من الله ، تعيش أيضا فى أحبائها ، .. فى أخواتها وإخوانها فى الله ، أولئك الذين لم يغادروا الأرض بعد . لم يزايلها شىء من فضائلها وشمائلها الملائكية .

حب متبادل فى الله

بين السيدة نفيسة والشعب المصرى

أحبّ الشعبُ المصرى السيدة نفيسة رضى الله عنها قبل قدومها إليه مع زوجها فىعام ١٩٣ هـ (١) حينما سمع بأنبائها وهى بالمدينة المنورة وتشوق إليها ، فلما قدمت استقلبها ذلك الاستقبال الرائع الذى أشرنا إليه فى مقدمة هذا الكتاب . وعندما استقر بها المقام بين ظهرانيه رأى فيها أكثر مما سمع ، فازداد بها تعلقا .

وقد قابلت هى حب الشعب لها هذا ، بحب مثله ، ولما كان حب الطرفين لبعضهما خالصا لله فقد دام . . إن عمر هذا الحب الآن نحو من اثنى عشر قرنا ، ومع هذا فهو لايزال يبدو قشيبا كالثوب الجديد .

رأى الشعب فيها آماله الروحية فأقبل عليها إقبال الظماء على المورد العذب ، واشتد الإقبال عليها والتزاحم على بابها حتى عاقها ذلك عما فرضت على نفسها من أوراد وعبادات ، فتألمت ولكنها لاذت بالصبر . حتى إذا طال بها المطال على هذا الوضع فكرت فى الرحيل والعودة إلى الحجاز حيث يتوافر لها الهدوء ويتسع لها مجال العبادة كما تشاء . إنها تحب الشعب ولكنها تحب الله أكثر ، وتود خدمته

---

(١) دخلت مصر فى يوم السبت الموافق ٢٦ رمضان سنة ١٩٣ هـ .

ولـكن خدمة مولاها ومولاه أعز وأوجب . به تخدمه ، وبرضاه تستعين على الخدمة المرموقة . وحينما ترامت أنباء هذه النية إلى الشعب شق عليه الأمر فحاول حملها على العدول فأبت ، ففزع إلى الحاكم يشفعه لديها لترضى، فبعث هذا لها رسولا وكتابا فأصرت . فجاء إليها بنفسه راجيا ملحا باسم الشعب ، وكان هو السرىّ ابن الحـكم والى مصر من قبل المأمون . فقالت له : إنى جئت إلى مصر بنية الإقامة الدائمة حتى الموت وأن أدفن فى تربتها . وإنى امرأة ضعيفة . وأرى الناس قد تـكاثروا علىّ تـكاثرا فاق طاقتى ، وشغلونى عن أورادى ، وعن جميع زادى لمعادى ، ومكانى هذا صغير وقد ضاق بالجموع الوافدة .

فقال لها الحاكم : إنى سأزيل جميع ما تشكين منه لتبقى هنا فى مصر ، وسأهيئ لك الأمر على الوجه الذين ترضين به .

أما ضيق المـكان فإن لى دارا واسعة بدرب السباع وإنى أشهد الله تعالى على أنى قد وهبتها لك . وأسألك القبول ! وأرجو أن لاتخيبى رجائى وألا تخجلينى بالرفض . فقالت قد قبلتها منك . ثم سألت : وماذا أصنع بالجموع الزاحفة يوميا ؟ فأجاب : تتفقين معهم على يومين فقط من كل أسبوع ، فيهما يكون التلاقى ، وليـكونا السبت والأربعاء ، وتتفرغين فى الأيام الباقية لمولاك ، فقبلت . (١) وشاع هذا القبول فشاع السرور بين الناس . وبقيت . وطاب لها المقام . وسماها الشعب (بنفيسة المصرية) وكيف لايطيب هذا المقام وكيف لاتستشعر السعادة كلها وقد توافرت لها أسبابها ؟

---

(١) يقول الرواة إنها نزلت فى أول قدومها إلى مصر فى دار كبير تجار مصر جمال الدين بن عبدالله بن الجصاص وأقامت بها أشهرا. وانها انتقلت منها الى (دار أم هانىء)ثم انتقلت الى دار (أبو السرايا أيوب بن صابر)وأخيرا انتقلت الى الدار التى أهديت لها من حاكم مصر وهى المعروفة باسم (دار أبى جعفر خالد بن هارون السلمى) واستقرت بها الى نهاية حياتها وكان يطلق على مدفنها قديما اسم درب السباع

عبادة لربها لاتنقطع وطاعة لا تتوقف . وذكر متصلة حلقاته ، فى الليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى .

وماذا تبغى أكثر من ذلك ؟ هذه هى السعادة التى تنشدها . إنها تريد الله وكفى .

بقيت أمنية تختلج فى صدرها ، هى أن تحفر لها قبرا فى دارها هذه يذكرها بالموت فى كل لحظة وقد فعلت ... حفرته بيديها . فلما تم لها هذا جعلت ديدنها أن تهبط إليه كل يوم ، وتقوم فيه مصلية ، وتقعد فيه تالية للذكر الحكيم .

وقد اختلف الرواة فى عدد ما أتمت من ختمات، فمنهم من قال إنها قرأت ١٩٠٠ ختمة، ومنهم من زاد على ذلك، ومنهم من أوصل هذا الرقم إلى ستة آلاف، حينما رأى استغراقها فى التلاوة، وليس يهمنا العدد زاد أم نقص ، فإن تقديره خاضع لعدة عوامل لا يمكن ضبطها ، منها مقدار الزمن الذى كانت تقضيه كل يوم فى هذه التلاوة ومقدار السرعة أو البطء فى التلاوة ولو أن حفظها القرآن كان معينا لها على السرعة المحمودة ، ذلك إلى عدد السنين والشهور ، والأيام التى واصلت فيها ذلك .

نقول : لا يهمنا الكم ولكن يهمنا الكيف . وليس أقدر منها ولا أعلم بهذا حيث أنها كانت ترضى نفسها وترضى الله .

أضف إلى ما تقدم صور خشوعها ، وأنينها وتذرفها الدموع خشية من الله وَفَرَقاً .

لقد أوفت على الغاية . ومن هنا كان شعورها بطيب المقام، فهذا هو طيب المقام عندها . .

* * *

ولم يكن موقفها من هذا الشعب الملتف حولها سلبيا . كلا . إنها كانت تعطيه الكثير مما أفاض الله عليها .

كانت تعطيه مجالس العلم تعقد فى دارها وتعبق فيها عوارف المعارف ، وتمنحه صدق الدعوة إلى الله ، وجمال التوجيه والإرشاد والإلهام بخيرى الدنيا والآخرة . وتقدم له من نفسها نموذجا متكاملا للسلوك المستقيم مع الله والناس ، وكانت مبسوطة اليد مع الفقراء ، والمحتاجين ، ولا ينسى القارىء أنها كانت من بيت بسط الله له فى رزقه ، وبسط من أيدى أصحابه لتنفق فى سبيله .

كذلك كانت سباقة إلى قضاء حوائج الناس ما استطاعت ، وإلى إسباغ رعايتها الروحية ، على من تشاء عاملة بالحديث الشريف :

(أحبكم إلى الله أنفعكم لعياله) .

* * *

دع عنك نسائم نفحاتها ، ومتلا حق بركاتها ، من لم يصبه منها وابل فطل . وما يبهر القوم ويهزهم ، بين الفينة والفينة ، من كرامات ، وخوارق عادات ، تزيد المؤمنين إيماناً ، وتقرع غير المؤمنين فيؤمنون .

* * *

هكذا كانت . وبهذا كله كانت سعيدة فى مصر ، وكان يضاعف من سعادتها علمها أن كل عناء يصيبها خلال إقامتها إنما هو إكرام من الله ، وإعلاء لشأنها عنده إذا صبرت ، وإنها لصابرة ، ثم شكرت ، وإنها أبداً شاكرة . تتلذذ بالضراء ، تلذذها بالسراء ، لأن كليهما من الله ، ولأن كليهما من علامات ذكر الله للعبد ، وحبذا هذا الذكر .

كانت مصـُرها غير مصر الآخرين . . غير مصر عمرو بن العاص التى افتنّ في وصفها فى خطابه التاريخى إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

وكانت هى من مصر خلال الخمس عشرة سنة التى أقامتها فيها : أنس روحها ، وأنشودة قلبها ، وإنسان عينها .

* * *

ولا يزال حب الشعب المصرى للسيدة نفيسة باقيا على روائه إلى اليوم ، يتوارثه الأبناء عن آبائهم وأمهاتهم ، لا يبلى ولا يذوى ، بل إن المحبين لها يتزايدون تبعا لتزايد عدد السكان . على الرغم من موجات الإلحاد الطافية الطاغية فى هذا العصر .

من فى مصر الآن من لا يعرف السيدة نفيسة فى شرقها وغربها وشمالها وجنوبها ، وشتى مسالكها ودروبها . ولا يحبها ولا يذكرها ذكراً مقرونا بالإجلال ، فإذا مَرَّ بمزار من مزاراتها وقف ليحييها ويقرأ لها الفاتحة فى أدب وخشوع ؟

إن كل جيل يسلمّ علم الحب إلى الجيل الذى يليه ، كأنما هو أمانة فى عنقه من الأقدار .

* * *

أرأيت أيها القارىء إلى شجرة الهند الهائلة المسماة باللغة اللاتينية (فيكس بنجا لنزيس) تلك التى تنمو وتعظم ، ثم تدلى فروعا منها إلى الأرض فتشقها وتتخللها فتكون جذورا جديدة لشجرات جديدة أخرى متصلة بالشجرة الأم وهكذا فتتزايد ولا تتناقص ، وتجدد نفسها ولا تشيخ ؟

أرأيت ؟ إنها كحب الشعب المصرى للسيدة نفيسة ، رضى الله عنها وأرضاها .

* * *

وقد مرّ بك أيها القارىء ما فعلتْ بعد وفاتها ، مع أحمد بن طولون فى

حياته حين ضج الشعب من جوره وضاق به ذرعا ، وتلفت ذات اليمين وذات الشمال بحثا عن منجد ، فكانت هى ـ أعنى روحها ـ هو هذا المنجد المغيث . بعد الله.

أتته بين اليقظة والمنام وألهمته العدل فى الرعية ، وحببته إليه وبغضته العسف والعتو، وسكبت فى صدره حب الخير ، بإذن ربها ، ولم تزل ، حتى عدل ، واستقام أمره ، وصلح حاله ، وتلك من آيات الله فى الرعاية الروحية السابغة ، وما يجحد بها إلا كل ختال كفور .

* * *

وكان للشعراء جولة فى مدحها والإشادة بمآثرها فى مصر ، وكم وددنا نقل ما قالوا من مظانّه ، لجمال معانيه ، قبل مبانيه ، وصدق تعبيرهم ، وحسن شعورهم لكن لما كان مجال هذا الكتاب يضيق عن ذلك به فنحن نجتزىء بالأبيات الآتية الرقيقة على سبيل المثال :

يا من له فى الكون من حاجة ... عليك بالسيدة الطاهره
نفيسة والمصطفى جدها ... أسرارها بين الورى ظاهره
فى الشرق والغرب لها شهرة ... أنوارها ساطعة باهره
كم من كرامات لها قد بدت ... وكم مقامات لها فاخره
عابدة زاهدة جامعة ... للخير فى الدنيا وفى الآخره
تتلو كتاب الله فى لحدها ... وهى لمن قد زارها ناظره
فى كل قطر قد سما ذكرها ... عاملة فائقة ماهره
يسقى بها الغيث إذا ما القرى ... قد أجدبت من سحبها الماطره
والناس قد عاشوا بها فى صفا ... عيش بأيام لها زاهرة(١)

---

(١) أقامت فى مصر خمسة عشر عاما ـ من ٢٦ رمضان سنة ١٩٣ إلى منتصف رمضان سنة ٢٠٨ هـ .

بين السيدة نفيسة والإمام ابن حنبل وبشر بن الحارث

لم تـكن السيدة نفيسة قد التقت من قبل بالإمام أحمد بن حنبل ، ولو أنها لاشك قدسمعت به ، عالما جليلا انفرد بمذهب خاص له فى الفقة الإسلامى .

كذلك لم يكن الإمام أحمد قد رأى السيدة من قبل ، ولو أنه لاشك قد سمع بصلاحها وألم بعظاهر تقواها .

لـكن حدث أن بشر بن الحارث[1] وكان من كبار الخاصة الذين يترددون على

(١) هو أبو نصر بشر بن الحارث الشهير بالحافى توفى فى عام ٢٢٧ هـ وكان من جلة علماء عصره . زاهدا ورعا جمع فى صدره بين علمى الشريعة والحقيقة ، كان سبب توبته وسلوكه طريق الله ان اصاب أثناء سيره ذات مرة كاغدة مكتوب فيها اسم الجلالة (الله) وقد وطاتها الأقدام ، فاخذها واشترى بدرهم كان معه غالية وطيب بها الكاغدة ، وجعلها فى شق حائط . فرأى فيما يرى النائم كان قائلا يقول له (يا بشر طيبت اسمى ، لأطيبن اسمك فى الدنيا والآخرة)
ومن أقواله (رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى :
يا بشر أتدرى لم رفعك الله من بين أقرانك ؟ فقلت لا يارسول الله . فقال (باتباعك لسنتى ، وخدمتك للصالحين ، ونصيحتك لأخوانك ، ومحبتك لأصحابى وأهل بيتى ، بلغك منازل الأبرار)

دار السيدة ويعقدون معها فيها مجالس علم — انقطع عن زيارتها ، فلما سألت عنه وعلمت بمرضه ذهبت تعوده فى داره .

هناك فى دار بشر ، وجدت الإمام أحمد بن حنبل

فسأل الإمام أحمد صاحب الدار عمن تكون هذه السيدة . . فلما عرف أنها هى السيدة نفيسة أحسن تحيتها ، وطلب من بشر أن يسألها لهما صالح الدعوات .

وكان هذا الطلب دليلا على علمه بمقامها الروحى العظيم ، وبدعائها المستجاب وما كان للسيدة نفيسة أن تخيب له ولا لبشر رجاءهما ، وهى التى ما اعتادت أن تخيب لأحد من عامة قاصديها رجاء . بل استجابت لهما ودعت قائلة :

« اللهم إن بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل يستجيران بك من النار فأجرهما يا أرحم الراحمين » .

وأى دعاء ترى أفضل من هذا ؟ إن النجاة من النار هى الأمنية الأولى لكل مسلم ، وهى مفتاح باب الجنة . وبعد أن دعت لهما دعاءها هنا ، طابت إليهما أن يدعوا لها فوافقا ، وتقول السيدة نفيسة رضى الله عنها :

لقد نعمت بمعرفة الأخ فى الله الإمام أحمد بن حنبل حينما كان عند صديقه بشر بن الحارث ، وهو على جانب عظيم من العلم والمعرفة وعلو القدر عند الله وقد استجبت لطلبهما ودعوت لهما ، كما طلبت إليهما أن يدعوا لى فكان ذلك . والله خير مجيب (إنما يتقبل الله من المتقين)

= وفى تاريخ ابن الوردى . حدث ابراهيم الحرى قال . رأيت بشر بن الحارث الحافى بعد موته فى المنام كأنه خارج من مسجد الرصافة وفى كمه شىء يتحرك . فقلت له ما فعل الله بك ؟ فقال . غفر لى وأكرمنى ، فقلت ما هذا الذى فى كمك؟ فقال . قدم علينا البارحة روح احمد بن حنبل (أى بعد وفاته) فنثر الدر والياقوت . فهذا مما التقطت . . الخ .

بين السيدة نفيسة والإمام الشافعي
رضي الله عنهما .. في مصر

قدم الإمام الشافعى إلى مصر فى عام ١٩٩ ﻫ أى بعد قدوم السيدة نفيسة إليها بستة أعوام .

قدم إليها فى كثير من الحذر والتردد ، مؤثراً إياها فى ذات الوقت على العراق واليمن والحجاز والشام . يريد أن يجرّب الإقامة فيها بعد أن رأى من المتاعب ما رأى فى سواها .

ويقول بعض الرواة إنه حين اتجه إلى مصر أنشد :

لقد أصبحتْ نفسى تتوق إلى مصر ومن دونها قطع المهامة والقفر
ووالله ما أدرى إلى الفوز والغنى أساق إليها أم أساق إلى قبرى

وحين وافاها كان خلواً من المال والشهرة . أما الأول فما تباطأ عنه إذ منحه عبد الله بن عبد الحكم ألف دينار ، وأخذ له من أحد الأثرياء ألفا أخرى ، وجمع له من كبار التجار ألفا ثالثة .

وأما الشهرة فإنه استطاع أن يبنى صرحها بيده القوية البناءة .

مازال ينثر حديثه كما تنثر الشمس فى الصباح سبائك أشعتها ، ويفيض على الناس علمه كما يفيض عليهم النيل ماءه . حتى انجذبوا إليه ، والتفوا حواليه ، فى مسجد الفسطاط ، وأخذت حلقاته تنافس حلقات الآخرين من العلماء ، ويحجبّ نورها أنوارها .

كان رحمه الله موفور العلم ، غزير المادة ، وكانت حافظته القوية خزانة لشتى المعارف التى كانت سائدة فى عصره ، إلى ذلاقة فى اللسان ، وعذوبة فى البيان ، وقوة فى المنطق والبرهان .

وكان يلذ له أن يناظر العلماء لثقته فى نفسه وإيقانه بالغلبة والنصر ، ولعلمه أن المناظرات محك العلم ، ومختبر الصحيح والسقيم منه .

وكما جلبت له هذه المناظرات الشهرة والمجد ، جلبت عليه كذلك الحسد والحقد . فاغبر وجه إقامته فى مصر ، ونبت الحسك على فراشه .

ولما كان بطبعه مناضلا قوى العزم ، فإنه مضى فى طريقه لا يأبه بما يدبر له من كيد ومكر ، ولا يبالى بما ينسج حوله من دس .

كان المجد العلمى إذ ذاك فى مصر لمذهب مالك وعلمائه .

فكيف ينتزع ذلك من حاملى لوائه ؟

دون ذلك خرط القتاد .

وفى خلال هذه الفترة . أو قل فى مستهلها ، تم التعارف بينه وبين السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وتوثقت بينهما الصلات .

كان كلاهما ينتمى إلى الشجرة النبوية جمع بينهما النسب الشريف . كما جمع بينهما حب العلم الشريف .

كذلك ربط بينهما نزوع إلى خدمة العقيدة الإسلامية ، وحرص على رفع منارها ، كل بطريقته وأسلوبه .

وإنه لهدف مشترك ، لمثله تتقارب القلوب الصافية ، وتتلاقى الجهود المتفرقة المخلصة . لتعمل فى هدوء لا يحس به أحد .

وربما أدركت السيدة نفيسة بوجدانها أنه فى حاجة إلى شىء من المال فأمدته به دون أن يطلب (١) .

وكانت تعيش آمنة فى سربها مطمئنة فى نفسها ، بفضل إيمانها بالله ، وتفويضها أمورها إليه ، وعزوفها عن الدنيا وعلائقها . فاجتذب كل هذا ؛ الشافعى إلى دارها ليجد عندها من سكينة النفس وراحة الفؤاد ما لم يجده فى المجتمعات الأخرى ، ومما هو فى أمس الحاجة إليه . وليجد فيها الجو الصالح لحديث علمى ليس فيه ما يعكر صفوه من جدل مثير غير مثمر .

كانت دارها بالنسبة للشافعى ؛ بمثابة الجزيرة المطمئنة القائمة وسط بحر صاخب متلاطم الأمواج .

وقد اعتاد أن يزورها وهو فى طريقه إلى حلقات درسه فى مسجد الفسطاط ؛ وفى طريق عودته إلى داره . وفى غير ذلك من الأوقات

---

(١) الشافعى هو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى المطلبى . لشافع الصحابى . ويجتمع مع النبى صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف .

وأمه فاطمة بنت عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط وفيه يجتمع مع السيدة نفيسة رضى الله عنهم أجمعين .

وقد ولد فى غزة على أرجح الأقوال فى عام ١٥٠ هـ يوم مات الإمام أبو حنيفة .

وكان يسمع منها الحديث الشريف ، ويصلى التراويح فى شهر رمضان فى مسجدها .

وكثيرا ما كان يسألها الدعاء ، وكان إذا مرض بعث إليها بأحد أصحابه كالربيع الجيزى أو الربيع المرادى فيقول لها إن ابن عمك الشافعى مريض ويسألك الدعاء ، فتدعو له ، فلا يرجع القاصد إلا وقد عوفى من مرضه .

فلما مرض مرضه الأخير الذى مات فيه أرسل إليها على جارى عادته ، ماتمسا منها الدعاء . فقالت للقاصد : (متعه الله بالنظر إلى وجهه الكريم) فلما عاد القاصد سأله الشافعى عما فعل فنقل إليه ما قالت . فعلم أنه ميت . وأخذ يوصى .. ثم أوصى أن تصلى هى عليه فى رحاب بيتها .

فلما توفى جاءوا به إلى بيتها تنفيذا لوصيته ؛ بعد أن صلى عليه أبو يعقوب البويطى أقدم تلاميذه صلاة الجنازة مع المشيعين . . فصلت هى عليه مرة أخرى مع لفيف من السيدات الصالحات .

وقد بارك رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتين الصلاتين اللتين لم يسبق لهما مثيل فيما مضى .

* * *

وورد فى بعض كتب السير أن أحد الصالحين ممن حضر صلاة جنازة الشافعى — قال عقب أداء الصلاتين : إن الله تعالى غفر لكل من صلى على الشافعى بالشافعى ، وغفر للشافعى بصلاة السيدة نفيسة رضى الله عنها عليه .

* * *

وجاء ذكر الشافعى بعد وفاته فى مجلس ، فقالت السيدة نفيسة تمتدحه وتترحم عليه :

(رحم الله الشافعى فقد كان رجلا يحسن الوضوء)(١) كذلك أثنت عليه بقولها :

كان الإمام الشافعى صبورا بكل ما فى الصبر من معنى ، يتاقى الشدائد بقلب ثابت ، ويسعى هادئا ليزيل ما ألم به معتمداً على الله حق الاعتماد ، ومتوكلا عليه حق التوكل ، شاكرا ما ابتلاه ، ضارعا أن يكشف عنه الضر ، مستبشرا بأجر من عند الله ، بقدر مايتحمل من آلام . ويظل هكذا دون أدنى ضجر أو ملال حتى يزيل الله ما نزل به . وحينئذ يصلى لله شاكرا . فهو عند الابتلاء كان شكورا وعند دفع الضر كان من الشاكرين .

وهكذا العبد المؤمن يجب أن يشكر الله فى السراء والضراء . ففى ذلك تكفير للسيئات ، ورفع للدرجات .

---

(١) شرحت السيدة نفيسة رضى الله عنها ذلك بقولها : إن الوضوء الصحيح هو الأساس الذى تبنى عليه العبادات ، فإذا كان الأساس قويا كان البناء سليما .

كان الإمام الشافعى يقوم بكل أعمال الوضوء على الوجه الأكمل كغيره من الصالحين ، ويتميز عليهم بعدم الإسراف فى الماء تطبيقاً للحديث الشريف المروى فيما يلى :

« مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على سعد بن أبى وقاص وهو يتوضأ فقال له : لاتسرف . فقال سعد : أو فى الماء إسراف يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : نعم ولو كنت على نهر » .

قالت السيدة : إن أعمال الوضوء كلها طريق إلى غسل القلوب ، من صدأ الذنوب ، وشرح للصدور ، وخطوة العبد يتقرب بها إلى ربه .

والاستنشاق والاستنثار من أبرز أعمال صفاء النفس بصفة جذابة سريعة .

وذلك كله مما يدل على أن للوضوء منزلة ممتازة بين العبادات يعرفها العارفون ويعيها الصالحون.

نهضة علمية يبعثها الإسلام
فى مصر

كان عمر بن عبد العزيز يحب مصر منذ أن قام فيها زهاء العشرين عاما مع أبيه الذى كان واليا عليها .

وحين ولى الخلافة فى مستهل القرن الثانى ، وشاء أن يبعثها نهضة علمية شاملة تطوى الإمبراطورية الإسلامية كلها، أنال مصر التفاتا خاصا وحظا وافرا من عنايته، فأوفد إليها المحدث الجليل نافع مولى عبدالله بن عمر، وهو أحد كبار رجال الحديث من طبقة التابعين ، ليبذر فى تربتها بذور هذه النهضة ، وسرعان ما نبت الزرع ، ونما وترعرع ، ذلك لأن أرض مصر ذات طبيعة دينية منذ القدم . منذ فراعينها وكهنتها ، بل منذ أقدم عصور التاريخ . وبطبيعته المتدينة هذه مال الشعب المصرى إلى جانب على وصحبه وإلى آل البيت عندما نشب الخلاف بينهم وبين معاوية والأمويين وخضع للحكم الأموى على كره منه شديد يتمشى فى ثناياه ويتخلل حناياه.

وعلى يد (نافع) تخرج مجتهدون صالحون فى مصر ، واتصل هؤلاء بغيرهم واتصل غيرهم بهم ، ولقن بعضهم بعضا ، واقتبس بعضهم من بعض واتسعت دائرتهم .

وبدأت الأرض تزدهر وتأخذ زخرفها العلمى .

وسادها هدوء ، فشدّ إليها رحلهم رجال من الأقطار الأخرى لمدارسة الحديث النبوى ، ووفد عليها الوافدون من علماء وطلاب علم من كل صوب وفج .

ولم لا يفدون عليها وهى مصر ذات الجاذبية القديمة ، أضيف إليها إغراء جديد هو العلم ، وكل أمر فيها مستقر ، وكل جانب منها ينفرد بجماله الخاص ، ويترنم مع الجوانب الأخرى ويتناغم ؟

هى دنيا لمن شـــاءها دنيا ، وأخرى لمن شاءها أخرى ، وفيها موضع لمن هفا إلى كلتيهما .

فإذا ظهر فيها خلاف أو استيقظت فتنة كانت فى دائرة ضيقة ، ولم تؤثر على تدينها ، ولا على انطلاقاتها الروحية التى تستقل بنفسها وتمضى ، بمنأى عن الخلاف أو الفتنة .

وفى خلال القرن الأول نزح إليها أيضا جماعة من أفاضل التابعين ، فـكانو عضداً للقوة المحلية ، فى مدارسة الحديث وروايته ، وتعليمه وتعلمه .

وأخيرا نشأ فى البيئة المصرية رواد نيّرون للحديث .

وكان هؤلاء طليعة لمن جاءوا بعدهم فى القرن الثانى حتى إذا كنا فى منتصف القرن الثانى بدأت المذاهب الفقهية ظهورها ونشر أنوارها فى ربوع العالم الإسلامى .

وظهرت نهضة علمية رائعة فى كل مناحى الفـكر لـكن كان الفقه والتشريع الإسلامى أبرز جوانبها .

ولمعت أنجم أئمة في العالم الإسلامي ، وكذلك لمعت أنجم خاصة في مصر .

لمع فيها الليث بن سعد أول أئمة الفقة الإسلامى فى مصر ، معاصرا للإمام مالك فى المدينة المنورة ، وكان يعاصر الليث فى مصر طائفة من كبار الفقهاء المصريين ، وإن كانوا دونه علما وجاها وثراء .

وفى أواخر القرن الثانى شق المذهب المالكى طريقه إلى مصر ، فأخذت كتابه بقوة .

وعندما قدم إليها الإمام الشافعى بعد ذلك فى عام ١٩٩ هـ كانت قواعد هذا المذهب قد توطدت فيها ، لكنها لم تضق بالمذهب الشافعى الذى أخذ يوطد أقدامه فيها رويدا رويدا .

وفاقت مصر سواها من البلدان ، فى دراسة القرآن ، ودراسة الحديث ، وكثرت حلقات العلماء فى مسجد عمرو وتعددت وأخذت فى تخريج رجال أكفاء أخذ عنهم كثير من المحدثين فيما بعد ؛ لاسيما أصحاب كتب الحديث الستة : البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة ؛ حين جاءوا إلى مصر لرواية الحديث خلال النصف الثانى من القرن الثالث .

وكان عصر المنافسة بين الشافعية والمالكية فى مصر والصراع العلمى فيها أكثر العصور العلمية بركة ، وأوفرها ثمرة فى تربية الرجال وتصنيف الكتب ، وفى جعل مصر منارا علميا دينيا مرموقا فى الدولة الإسلامية ومركز إشعاع قوى ؛ حتى لنستطيع أن نقرر فى ثقة واطمئنان ـ أن قطراً ما من أقطار الشرق الإسلامى لم يحقق ما حققته مصر فى علوم الدين .

* * *

وفى وسط هذا البحر كان تيار آخر يشق طريقه . فى العالم الإسلامى وهو تيار التصوف الذي ولد مع الإسلام ، ورضع من لبانه ، وحمله الصحابة والتابعون ، في

روحه وهديه ، وفى آدابه ، وفى ترفعـــــه وزهده .

وحين مشت الحياة بالمسلمين وفتحت عليهم الدنيا ، وتفرقت القلوب وفترت العزائم ، وتسارع الناس فى كل مكان إلى المال والجاه ومتاع الحياة الدنيا ، خرج التصوف من الصدور ليجاهد النزعات الجديدة ويكبح من جماحها . وظهر وعاظ ومرشدون يردون القطعان الضالة إلى الحظيرة ، وظهر زهاد يقفون فى وجه فتنة الترف والسرف وقد أشرنا إليهم فى فصل مضى .

وظهر العبّاد الذين انقطعوا إلى الله ، وعطروا الأجواء بأذكارهم وتسبيحاتهم وتلاواتهم .

وظهر الرعيل الأول من الربانيين الذين سُمُّوا بالمتصوفة. يرون الله فى كل شىء ، ويحبونه فى كل شىء . ويفنون ذواتهم فى ذاته وإرادتهم فى إرادته.

* * *

يقول إسحق بن إبراهيم السرخسى : سمعت ذا النون المصرى يقول ، وفى يده الغل وفى رجليه القيد ، وهو يســاق إلى المطبق ، والناس من حوله فى بغداد يبكون . سمعته يقول :

« هذا من مواهب الله تعالى وعطاياه ، وكل فعله عذب حسن طيب »(١).

* * *

---

(١) هو أبو الفيض ثوبان من بلدة أخميم فى أقصى صعيد مصر توفى فى عام ٢٤٥ﻫ كان معاصراً للسيدة نفيسة فى مصر ويقال إنه تتلمذ على الإمام مالك بن أنس كان من أكابر رجال العلم والفصاحة والورع .وهو أول من تكلم فى مصر فى الأحوال=

كان ذلك إلى نهاية القرن الثانى ، وجاء القرن الثالث فبدأ معه العصر الذهبى للتصوف .

وتلاقى الجمعان ، واجتمع العلمان : علم الشريعة وعلم الحقيقة ، فى كثير من العقول المشرقة والصدور الصافية ، يشرب من كل من شاء ماشاء . ومن الناس من انفردوا بواحد منهما ، ومنهم من جمع بين الحسنيين ، وعب من الساسبيلين المنجيين ، من مصدر واحد هو الإسلام ، دين الحق ، دين الشريعة والحقيقة .

ولما كان مولد السيدة نفيسة فى عام ١٤٥هـ فإنها قد عاصرت جل تلك الحركات العلمية والصوفية ، وعاشت فيها ، وتأثرت بها وأثرت فيها : شريعة وحقيقة ، الشريعة القرآن والسنة، والحقيقة هى المثالية المقتبسة من روح القرآن وحياة الرسول. تأثرت بها وأثرت فيها روحا وعقلا وشكلا .

كانت بركة مهداة إلى تلك النهضة العظيمة تغذيها ، وتذكيها ، وتنفخ من روحها فيها ، حتى أينعت ثمارها وآتت أكلها .

وكانت تلك رسالتها حتى نهاية مطافها فى الحياة الدنيا .

ومما قالته رضى الله عنها عن مصر :

« لقد أراد الله بمصر خيرا . وكفى بها شرفا أنه ذكرها فى القرآن كما ذكر مكة . ولهذا فإن هذا البلد سوف يرقى إسلاميا بمن يوفقهم الله لقيادته فى هذه السبيل وإن ما عانته مصر بصفة عامة كأمة هو ما يعانيه من يبتليه الله ليختبر إيمانه .

وإنى أدعو الله دائما أن يجعل مصر بعد الأماكن المقدسة محفوظة برعايته ، يشع منها نور الإسلام والهداية على جميع أنحاء الأرض ، وأسأله تعالى أن يستجيب الدعاء إنه سميع مجيب » .

= ومقامات أهل الولاية ويقول بعضهم عنه إنه هو واضع أسس التصوف سعى ضده الساعون لدى الخليفة لكنه لمس فيه البراء فأعاده معززا مكرما إلى وطنه .

القاهرة .. قبل القاهرة

نقدم فيما يلى صورة مصغرة للمدينة التى قررت السيدة نفيسة أن ترحل إليها من المدينة المنورة مع زوجها فى عام ١٩٣ هـ .

لم تكن هناك ، القاهرة .. فإن هذه أنشئت فى عام ٣٥٨ هـ على يد الفاطميين إنما كانت هناك مدينة أخرى هى مدينة الفسطاط التى أنشأها عمرو بن العاص فى عام ٢٠ هـ عند فتح مصر ، والتى أنشأ بها جامعه المشهور فى عام ٢١ هـ .

وقد خططت مدينة الفسطاط هذه حول المسجد ، وكان كلاهما يشرف على النيل .

وفى خلال الدولة الأموية والشطر الأول من الحكم العباسى كانت الفسطاط قد بلغت شأوا بعيدا فى الرقى والازدهار . حتى لقد ارتفعت دورها إلى ست طبقات ، وأنشئت الحدائق فوق أسطحها كما دلت الحفريات والدراسات الأثرية .

وكما كان فيها دور متواضعة للعامة كان فيها للخاصة وكبار موظفى الدولة من أعوان الوالى دور ممتازة جميلة تتوسطها أحواض الماء ، وكان للدور مداخل خاصة لأصحابها ومداخل أخرى لخدمهم .

وأقبل عليها التجار بسلعهم الثمينة من جميع أنحاء العالم وكان خلف جامع عمرو سوق القناديل ، وهو يعادل خان الخليلى اليوم .

كذلك ساير جامع عمرو نفسه هذا التقدم والازدهار مذ كان موضع رعاية الحكام ، هو ومدينة الفسطاط .

كان الولاة المحليون يرعونها ، وكان الخلفاء على البعد يولونها عناية ، خاصة . امتثالا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا فتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحما)

وقد وسع الحكام المسجد وانتقلوا به من البداوة إلى أرقى المبانى ، وزاد فيه عبد الله بن طاهر فى عام ٢١٢ هـ ضعف مساحته ، وقد تكون هى مساحته الحالية ، وجاءت هذه الزيادة بعد انتقال السيدة نفيسة والإمام الشافعى والإمام الليث بن سعد قبلها إلى الدار الآخرة بسنوات قلائل ، وكان هؤلاء ألمع نجوم الفسطاط فى عصرهم علما وورعا وشهرة وإليهم كانت تشد الرحيل .

وكانت رسالة الجامع دينية وثقافية :

كان أقدم جامعة إسلامية ، لم يقتصر فيه التدريس على الرجال ، بل كانت تعقد فيه حلقات وعظ للنساء . وما زالت النساء يتلقين دروسهن الدينية فيه ويتفقهن ويتدربن حتى تصدرت حلقات وعظهن فى الدولة الفاطمية واعظة زمانها (أم الخير الحجازية)

وكما كان المسجد مجمع العلماء كذلك كان منتدى للأدباء والشعراء ، وكثير ما كانوا يجتمعون على سطح المسجد فى الليالى القمرية يصفون انعكاس ضوء القمر على صفحة النيل ، أو يصفون غروب الشمس فى النيل .

وقد بقيت مدينة الفسطاط عامرة بحضارتها حتى أحرقت فى عام ٥٦٤ هـ خشية احتلال الصليبيين لها .

وقد استوطنها عدد كبير من العلماء والشعراء ، وخضعت للنظم الإسلامية المثالية فى الإدارة والإشراف على كافه المرافق وكمال رعاية الشعب والمحافظة على الآداب العامة .

ونعتقد أن البقعة التى قضت فيها السيدة نفيسة معظم حياتها بمصر بين عامى ١٩٣ و ٢٠٨ ﻫ ثم دفنت فيها كانت فى الطريق إلى جامع عمرو ، وكانت بقعة إسلامية إلى مشارف جبل المقطم شرقا وإلى مشارف النيل غربا .

أما غير المسلمين فكانت مساكنهم إلى الشمال .

وفى خلال ازدهار مدينة الفسطاط أنشئت مدينة القاهرة فلم تؤثر عليها ، ولم تزل عالية الذرى رفيعة الشأن حتى أحرقت كما ذكرنا . وفيها لطائفة من آل البيت مقابر ومزارات مباركة .

من أقوالهـــا

على المؤمن أن يستبشر بالمشاق التى تعترضه . فإنها سبيل لرفع درجته عند الله وقد جعل الأجر على قدر المشقة . والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم .

* * *

الدنيا كلها مرارة . فإن كانت بها حلاوة فهى حلاوة الإيمان .

* * *

لا ينس المسلم قول الله تعالى (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) وهذا الـكبد يجب أن يقابل بالصبر الجميل . فإنه بلسمه .

* * *

حذار من الغرور . . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يحفه الصحابة بألوان من التعظيم والتـكريم يمرغ خديه فى التراب .

* * *

فى الاستنشاق والاستنثار ـــ وهما من أعمال الوضوء ـــ أسرار .. فيهما جلاء النفس، وللنفس المجلوة جاذبية .

* * *

إنى احببت المصريين حباجما . وكنت أتمنى أن تكون مقبرتى فى مصر .فلا أفارقهم حية ولا ميتة . فحقق الله أمنيتى ، كفى مصر شرفاً أن الله تعالى ذكرها فى القرآن كما ذكر مكة .

* * *

أى تكفير للسيئات ورفع للدرجات فى حمد الله على الضراء والسراء .

* * *

لا مناص من الشوك فى طريق السعادة ، فمن تخطاه وصل .

* * *

فى امور تكون أولا تكون سهرت أعين ونامت عيون
والذى قد كفاك بالأمس ما كا ن سيكفيك فى غد ما يكون

* * *

إنى مازلت أعمل فى عالم البرزخ فأشد أزر المجاهدين والمجاهدات ما استطعت بعون من الله ، وأحاول أن يستقيم ظلهم وأن لا يعتور سلوكهم ما يشوبه أو يشينه .

* * *

الصبر يلازم المؤمن بقدر ما فى قلبه من إيمان . . حسب الصابر أن الله معه .

* * *

ولقد ذكر الصبر فى القرآن أربعا وثمانين مرة وذلك دليل على قيمة الصبر وعلو شأنه وحسن عاقبته .

* * *

إن الصلاة صلة بين العبد وربه ، وهى المفتاح الذى تفتح به خزانة الروحانيات

وركعتان توافرت فيهما هذه الصلة خير من ألفٍ من الركعات المجردة منها .

إن كثيرين من المسلمين يستكثرون من النوافل فى إعجاب بكثرة العدد على حين أنه لاخير فيها . فرب مصلّ ليس له من صلاته غير التعب . ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ .

* * *

الإسلام غنى بتعاليمه ، وليس هو فى حاجة إلى نُقول من تعاليم وفلسفات من ديانات أخرى لايقرها ، مهما علا شأن أهلها فى حياتهم الدنيا .

* * *

إن الخشوع الذى أشار الله إليه فى قوله ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ لن يتحقق إلا إذا كانت الصلاة صافية من كل مثقال ذرة من شواغل الدنيا . ويكفيك الله شر تلك الشواغل بمقدار إخلاصك له وتفكيرك المركز فى كل كلمة تقولها وكل آية تقرؤها وكل حركة تتحركها أثناء الصلاة .

* * *

لست أكثر من عابدة من عباد الله رجت أن تكون من المقبولات عنده . إنه لايضيع أجر من أحسن عملا . والطريق مفتوح دائما أمام كل مسلم ومسلمة للوصول إلى ما وصلت إليه وأبعد ، بقدر الجهد المبذول .

* * *

إذا سجدت فاذكر أنك وضعت أكرم ما فى الإنسان وهو رأسه فى الأرض طاعة لله ، واعترافا بفضله ، وخوفا منه .

* * *

يتلذذ الصالحون بالكفاح للتغلب على الصعاب فى سبيل الله أملا فيما ينتظرهم

من أجر عظيم ، هم فى شوق إليه شديد . وذلك مما يهون عليهم تلك الصعاب .

* * *

إن كرامة الولى هى برهان على صدق صاحبها ، وهى تكريم من الله له — ونور لمن شاء أن ينسج على منواله ليصل إلى ما وصل إليه ، وطريق الطاعة للقربى من الله ميسر دائما لكل من حارب نفسه وهواها .

* * *

من ثمرات التذوق لحلاوة الإيمان تدرج المتذوق رويدا رويدا فى طريق الصالحين . حتى يصل إلى ما وصلوا إليه .

* * *

كثيرا ما يكون للصعاب المعترضة طريق السالك ، فضل توليد قوى جديدة دافعة فى نفسه ، يحطم بها تلك الصعاب ، ويمضى بها إلى أهدافه قدما .

* * *

إلهى وسيدى ومولاى : متعنى وضاعف فرحتى برضاك عنى فلا سبب لى أتسبب به يحجبك عنى .

* * *

من استقام مع الله كان الكون بيده وفى طاعته .

* * *

لا يكمل حب المسلم لرسول الله إلا بمتابعته فى جميع أعماله وأقواله . ولا تمجيد لذكراه كالعمل على مرضاته باتباع سنته ، وترديد الذكريات المجيدة لحياته .

* * *

إن الجهاد فى طلب الرزق عبادة يدخر أجرها ليوم الحساب ، وهى داخلة فى نطاق قوله تعالى ، ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ .

بداية النهاية

.. وكرت الأيام كرها المألوف ، لاجديد فيها سوى أن سيدتنا الجليلة ، سيدة العابدات المتبتلات ، فى تاريخ الإسلام كله ، تواصل ما أخذت نفسها به من عبادات : ليلها قيام ، ونهارها صيام ، تتخلل صيامها وقيامها قربات من صور وألوان ، فى غير رفق بالنفس ولا هوادة ، تأبى الطعام حتى قيل إنها كانت تتناول وجبة واحدة كل ثلاثة أيام ، وكلما أوسعت من خطاها إلى الله وزاد عليه إقبالها ، تزايد ضعفها الجسدى وهزالها ، حتى كان اليوم الأول من شهر رجب من عام ٢٠٨ هـ

تقول زينب ابنة أخيها ، وكانت ملازمة لها قائمة على خدمتها : « فى هذا اليوم تألمت عمتى فكتبت إلى زوجها إسحق المؤتمن ، وكان غائبا بالمدينة المنورة ، تستقدمه[1] » .

لقد رأت السيدة نفيسة بعين بصيرتها صورا من الأيام القادمة وحوادثها ..

---

(١) كان اسحق المؤتمن فى ذلك الوقت والياً على المدينة . عين فى هذا المنصب من الخليفة العباسى بعد وفاة واليها (الحسن بن زيد) والد السيدة نفيسه رضى الله عنها .

إنها بداية النهاية . .

وأخذت تصلى جالسة أحيانا ، لفرط ضعفها ، وعرض عليها أن تفطر فأبت . وازداد تطلعها إلى قبرها العزيز الذى سيكون بيتا لبيت . بيتاً لجسدها والجسد بيت الروح حتى ترحل عنه ، وكأنها تسمع صوت هذا القبر وهو يناجى شاغلها القادم ، ويستعجله ويفتح له ذراعيه . إنه كجزء من البرزخ روضــة من رياض الجنة .

ولم تزل كذلك إلى أول جمعة من شهر رمضان فزاد بها الألم ، وهى صائمة ، فأدخل عليها الحذاق من الأطباء فأشاروا بالإفطار أولاً للابقاء على البقية الباقية من قوتها الضعيفة ، فقالت :

(واعجباً ، لى ثلاثون سنة أسأل الله عز وجّل فيها أن يتوفانى صائمة فأفطر ؟ معاذ الله) .

كلمة من مؤمنة قوية الإيمان ، تدرى ما تقول ، وما تفعل ، وما تهدف إليه ، وترى ما هى مقبلة عليه عما قليل .

ثم انشدت تقول :

اصرفــوا عنى طبيبى ودعــونى لحبيــبى
زاد بى شوقى إليــه وغــرامى فى لهيــب
طاب هتكى فى هــواه بين واش ورقيب
لا أبــالى بعــذاب حيث قد صــار نصيبى
ليس من لام بعــذلٍ عنه فيــه بمصيب

جسدى راض . بسقمى وجفــــونى بنحيب

* * *

لقد انتظرت هذه الساعة ، وزينت سماءها لها بزينة الكواكب . كواكب الذكر والشكر والطاعة والعبادة وكل قربة فى مقدورها ، بكل كوكب يمكن أن تزين به سماءها . . سماء حياتها الروحية العالية .

* * *

أما قلق الناس من حولها فحدث عنه ولا حرج ، منذ أن شهدوا تحولها من نحول إلى نحول ، حتى لم يبق فيها سوى أثارة أو شبح .

لقد علموا أنها تسير سيرا حثيثا إلى النهاية المحتومة ، إلى لقاء ربها الذى ملأت جوانحها بالانشغال به انشغالا لم يبق معه متسع لغيره ؛ واستغرقت فى حبه ، طاهرة صافية صفاء ماء المزن . . . ولا حيلة لهم فى هـذا . . وبقيت كذلك إلى العشرة الأواسط من شهر رمضان .

* * *

وفى اللحظات الأخيرة للحياة يرى كثير من الناس أرواح أحبائهم الذين سبقوهم إلى العالم الثانى قد حضرت ووقفت تجاههم محيية مبتسمة ، ومتحدثة أحيـــانا .

ولعل السيدة نفيسة ، حين حلت بها هذه المرحلة كانت تشاهد حولها الذين خفوا إليها من المـــلأ الأعلى ووقفوا على باب البرزخ ، استعدادا لإستقبالها والترحيب بها ، وهم يتهامسون :

إن السيدة نفيسة قادمة إلينا بنفائسها ، وما نفائسها إلا صالح الأعمال .

إنها توشك أن تثب إلينا . .

ويقول بعض الثقاة من كبار الصالحين : إن أعمال الإنسان الصالحة فى الدنيا تتطور فى البرزخ إلى صور جميلة تؤنس وحشة صاحبها . . فأى حشد من هذه الصور الجميلة ترى كان فى انتظارها أيضا إذا صح هذا وما أحسبه إلا صحيحا . وآية من آيات قدرة الله (١)

وأخـــيراً . . .

(١) يقول على الخواص : لا يكمل إيمان العبد الكمال المتعارف بين القوم حتى يشاهد أعماله وهى متطورة صاعدة إلى محل استقرارها من الأفلاك من عرش أو لوح أو قلم أو كرسي أو سدرة كما هو معروف عند أهل الكشف .

وأخيراً .. غربت الشمس

اقتربت الساعة المرجوة ، ساعة الخلاص ، من ربقتين : ربقة البدن وربقة الدنيا. والانطلاق إلى الآفاق المشرقة العليا .

وشاءت السيدة الجليلة أن تختم حياتها بالقرآن ولذيذ تلاوته ؛ وأن تغادرها وحلاوة هذه التلاوة ملء فمها وحشو صدرها .

واستفتحت بسورة الأنعام حتى إذا بلغت قوله تعالى (لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون) غُشى عليها ، على بساط هذه البشرى الإلهية .

وتقول زينب ابنة أخيها ، فضممتها إلى صدرى . فتشهدت شهادة الحق ، وقبضت .

وغربت الشمس .

أجل . لقد غربت شمس مشرقة فى سماء العالم الإسلامى وسكن الصوت المتهجد رفيق الليل إذا سجا ، سكن الصوت الخفيض العالى .. الخفيض فى ماديته حتى لا يكاد يسمع ، والعالي فى روحانيته حتي ليبلغ السموات ويطرق أبوابها .

ووقف القلب الذى طالما تقلب هلوعا ، ووجب جزوعا ، واضطرب خشية من الله وخشوعا .

وأمسك عن انبعاثه ذلك العطر الذى كان يملأ الأرجاء ، وينعش الأحياء .

وتوقفت المحطة — بلغة العصر الحديث — عن إرسال الدعوات المستجابات للسائلين ، والكلمات المذكرة بالله . والآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر للمريدين .

* * *

وسرى النعى مسرى الكهرباء فى طول البلاد وعرضها «ماتت السيدة نفيسة» فسبحان الحى الذى لا يموت . . وماجت مصر للنبأ المروع . . فقد انتزع الموت من أهلها درة يتيمة كانوا يعتزون بها ، وبها يمشون مطمئنين وكأنها مالك كل منهم . وقد كانت كذلك فعلا .

كانت كالماء والهواء .. مالك كل فرد وملك كل الأفراد .

وفيما هم يموجون ويبكون وصل زوجها إسحق المؤتمن فى اليوم نفسه ، ليجدها قد انتقلت إلى رحاب الله، وليقول لهم إنه يريد أن ينقلها إلى المدينة لتدفن فى البقيع. فكان هذا نكأ للجرح الدامى ، فتضاعفت آلامهم وأحزانهم .

لقد حرموا منها حية ، ثم أفيحرمون منها ميتة أيضا ؟ لا إنه أمر فوق ما تحتمل النفوس .

وهرعت جموعهم إلى دار الأمير واستجاروا به يريدونه أن يتدخل بسلطانه ونفوذه لدى إسحق لمنع هذا النقل . وجمعوا فى الوقت نفسه مالا وفيراً أوسقوا به بعيره الذى قدم به من المدينة ، وسألوه أن يقبل هذا المال ويعدل عما يريد ، فأبى

المال واستنكره ، وأبى العدول عن عزمه ، فتركوا المال وانصرفوا وباتوا بليلة الملسوع ، فلما أصبح الصباح ذهبوا إليه ليجددوا له الرجاء ، فوجدوه على غير ما تركوه بالأمس . قال لهم إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومى فقال لى : رد عليهم أموالهم وادفنها عندهم ولا تعارض أهل مصر فيها ، فإن رحمة الله تنزل عليهم ببركتها . نخفف هذا من برحائهم وحمدوا الله عليه .

وكان يوم دفنها يوما مشهودا . لا تسل عما فعل المصريون فيه .

كلهم يريد أن يشترك فى الصلاة عليها وتشييع جنازتها . وخرجت مصر كلها . وأين المكان الذى يسع هؤلاء جميعا ؟

يقول المؤرخون : إن دارها وما أحاط بها من كل طريق وساحة وفراغ امتلأ بالناس وفاض وامتلأت الأودية والقيعان ، وفاضت بالمصلين المتزاحمين بالمناكب . كل يبغى أن يودع بنفسه هذه البارة الطاهرة ، هذا الملك الكريم ، وأن ينال نصيبه من بركات السماء ورحماتها حين تهطل على المصلين . وأديت الصلاة فى مشهد حافل جليل ، لم ير له مثيل . ودفنت فى قبرها الذى حفرته بيدها ، لتبقى مع من أحبتهم من المصريين حبا جما .

أولئك الذين عنيت بهم كل العناية فى حياتها ، ولا تزال تعنى بهم فى عالم الروح ، عالم الخلود ، وتجاهد لخيرهم ما استطاعت ، وترجو الله أن يحقق لهم آمالهم ويبعد عنهم السوء من جميع أطرافه .

وجاء الليل وأوقدت الشموع فى أعالى الدور ، وسمع البكاء من كل مكان ، وعظم الحزن فى كل واد وكل فؤاد . وفى اليوم التالى جاءت وفود من شتى الديار وصلوا على قبرها بعد أن فاتتهم صلاة الجنازة عليها فى اليوم الأول (١)

---

(١) كانت وفاتها يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٢٠٨ ويحتفل المصريون بذكراها فى ١٦ و ١٧ من رمضان كل عام .

وهذا كل شىء، ثم ما لبث تيار الحياة أن استرد مسيره بعد توقف. سنة الله فى خلقه.

• • •

وبعد ، فهذه صحائف من عُمْر ٍ رضى الله عنه وعن صاحبته وبارك وزكاه ، وجعل له نوراً يمشى فى الناس بالهداية والإرشاد ... نوراً لا ينطفىء.

إنها ثلاثة وستون عاما ، كل عام منها يفخر به زمانه ، ويزهو به مكانه ، وما زمانه إلا الحياة البشرية بأسرها ، وما مكانه سوى هذا الكوكب الأرضى . فإذا احتجب ذاك النور عن عالم المادة فلكى يشرق فى عالم الروح ويواصل فيه رسالته، كالشمس تختفى وراء أفق لتبزغ من أفق آخر .

ولقد تحدثنا من قبل عن مواصلة الروح لأوجه نشاطها فى البرزخ فى بحث سابق تحت عنوان (الرعاية الروحية) . وما من بأس فى أن نضيف إليه ما يلى ، لمناسبة هذه الكلمة ، وهو ما تلقيناه من شخصية عالية لها مقام محمود فى عالم البحث والدراسة والاستقصاء واكتشاف ما يغمض من الحقائق الكونية .

قالت تلك الشخصية :

« إن الأرواح حقا لها عمل فى برزخها ، وتلك هى الأرواح التى كانت فى أجساد الصالحين من عباد الله فهذه تواصل العبادة وتتعاون مع المجاهدين والصالحين فى حياتهم الدنيا . حتى يصلوا إلى درجات أعلى . فيفيدون ويستفيدون . أما الأرواح التى كانت فى أجسام شريرة فتلك هى التى كانت تحيطها نزعات الشياطين فتشقى . ويشع شقاؤها على أجسادها فتشقى فى مقابرها أينما كانت ، فى الأرض فى بطون الديدان أو الوحوش أو النبات ، أو فى البحر فى بطون الحيتان ، أو فى الجو فى بطون الطير ، بقدرة الله وذلك مصداق لقول رسول الله : (القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار) وإن بعض المنحرفين فى الحياة الدنيا ليستعينون بتلك الأرواح الشريرة التى تغضب الله .. «ألا ان يوم الحساب قريب . يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم »

السيدة نفيسة من أحاديثها وأقوالها المأثورة

إذا عرف امرؤ بصدق الحديث و نقاء السريرة سهلت عليك معرفته والحكم عليه من أقواله، إنها المرآة التى تنعكس عليها صورته الداخلية فتشاهدها على حقيقتها .

وللسيدة نفيسة رضى الله عنها ، ذلك الصدق فى الحديث والنقاء فى السريرة ، ولها أقوال وأحاديث ، سلسة غاية السلاسة ، تسيل سيل ماء الجدول هادئاً رقراقاً وتعطيك صورة صادقة منها فى شتى جوانبها .

خذ إليك أولا الدعاء الآتى :

« اللهم يامن علا فقدر ، ومالك فقهر ، اجبر من أمتك ما انكسر »

إنها قطعة من البلاغة ، ولا عجب ، فالشىء من معدنه لا يستغرب . أليست ابنة الإمام على إمام البلاغة ؟

* * *

وطف بأقوالها وأحاديثها عن الإمام الشافعى فى الفصل الخاص به فى هذا الكتاب ، وتأمل كلماتها عنه وعن أسرار الصلاة وأسرار الوضوء ، تجد فيها

شطراً من العلم يدلك قليله على كثيره ، وشطراً من التاريخ إذا أضفته إلى كلماتها عن المأمون ، وأحمد بن طولون ، كل فى مكانه من صحائف هذا الكتاب ، علمت مكانها من العلم بالتاريخ الإسلامى .

* * *

وقف عند قولها :

(لا ينسى المسلم قول الله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى كبد » وهذا الكبد يجب أن يقابل بالصبر الجميل فإنه بلسمه .

أليس هذا هو الطب النفسى . يذكر الداء ويصف الدواء ؟

* * *

وخذ من قولها (الدنيا كلها مرارة ، فان كانت بها حلاوة فهى حلاوة الإيمان) خذ منها صدق النظرة إلى الدنيا وصدق تصويرها بعد سبر أغوارها .

* * *

وحديثها عن مصر والمصريين ، وتجده فى موضعه من هذا الكتاب دليل على صدر جياش بعواطف الأخوة الإسلامية ، والأخوة الإنسانية . إنها فى هذا الحديث تصعد إلى قمة المحبة البشرية .

* * *

وانظر إلى قدرتها على الإغراء بفضيلة ، بالعبارة السهلة الممتعة تنفذ من السمع إلى القلب ، فى قولها : (أى تكفير للسيئات ، ورفع للدرجات فى حمد الله على السراء والضراء) .

* * *

وما أرقه من قلب ذلك الذى يصدر منه هذا الشعر الرقيق داعياً إلى الرضا

بقضاء الله وتسليم الأمر إليه ، وما أقواه من إيمان بالقضاء :

في أمور تكون أو لا تكون   سهرت أعين ونامت عيون
والذى قد كفاك بالأمس ما كا   ن سيكفيك فى غد ما يكون

. . .

وفى تشديدها النكير على الذين يستكثرون من النوافل فى صلواتهم من إعجاب بأنفسهم بكثرة العدد ، وفى صيحتها فيهم حين تقول (إن ركعتين من الصلاة تحققت فيهما الصلة المطلوبة فى الصلاة بين العبد وربه خير من ألف ركعة تجردت منها)

فى هذا آية عمقها فى فهم الشريعة الإسلامية وأحكامها وتغلغلها إلى روح هذا الأحكام .

. . .

وفى أحاديثها المتعددة عن الصبر دليل على إيمانها به وأخذها نفسها بقواعده فى حياتها ودواعيه . وفى تاريخ مجاهداتها واصطبارها تطابق بين أقوالها وأعمالها وأنها حين تطلبه إلى الناس تطلبه إلى نفسها أولا وتستجيب له .

. . .

ومن قولها : إن الإسلام غنى بتعاليمه عن الفلسفات الأخرى ، تعرف إلمامها بهذه الفلسفات ووجوه الانحراف فيها .

. . .

وفى حديثها عن الكرامات علم من علوم الحقيقة التى تتقنها وتجيد التعبير عنها

. . .

وخذ تواضعها من قولها (لست أكثر من عابدة ترجو أن تكون من المقبولات عند الله)

. . .

وانظر إلى اتجاهها إلى الله بكامل قواها فى قولها وهى تبكى وتتعلق بأستار الكعبة (إلهى وسيدى ومولاى : متعنى وضاعف فرحتى برضاك عنى)

* * *

وفى أبيات الشعر الرقيقة التى أنشدتها وهى تستعد للرحيل من الدنيا والواردة تحت عنوان (بداية النهاية) فى هذا الكتاب تصوير لما يفيض به قلبها من حب لله وتشوقه إليه .

* * *

أما قوة عزمها فيبرزها رفضها الإفطار والإصرار على مواصلة الصوم ، وأهلها وأطباؤها وقوف حولها يلحون عليها بأن تفطر محافظة على حياتها وقدأشرفت على الخطر . وقولها : (واعجباً لى ثلاثون سنة أسأل الله عز وجل فيها أن يتوفانى وأنا صائمة . فأفطر ؟ معاذ الله)

* * *

وفى أقوالها عن البرزخ ، وفى شرحها حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (القبر إما روض من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار) وهو ماوردتحت عنوان (وأخيراً .. غربت الشمس) علم بالحياة بعد الموت ، ورفع للنقاب عن بعض جوانبها المجهولة .

وأخيراً ليس أدل على روحانيتها القوية وشفافيتها المضيئة من حديثها الرائع الجليل عن سيدنا إبراهيم الخليل وزيارتها له وهو مايجده القارىء فى مكانه من هذا الكتاب .

إنه حديث يدل على أن السيدة نفيسة رضى الله عنها قطعة من نور

* * *

هؤلاء الأكابر

وقد زارها فى قبرها كثير من كبار الأولياء والصالحين متبركين ،نذكرمنهم، نقلا عن بعض الكتب . . .

« ذوالنون المصرى ، وأبو على الروزبارى ، وأبوالحسن الدينورى ، وأبو بكر أحمد بن نصر الدقاق ، وبنان بن أحمد بن محمد بن سعيد الجمال الواسطى ، وشقران ابن عبد الله المغربى ، وإدريس بن يحيى الخولانى ، والفضل بن فضلة ، والقاضى بكار بن قتيبة ، وإسماعيل المدنى صاحب الإمام الشافعى ، وعبد الله بن عبد الحكم وولد الامام محمد صاحب كتاب تاريخ مصر ، وعبد الرحيم بن الحكم ، والإمام أبو يعقوب البويطى ، والربيع بن سليمان المرادى ، وحرملة بن يحيى التجيبى الشافعى ، ويونس بن عبد الأعلى الصدفى ، والفقيه عبد الله بن وهب بن أبى مسلم القرشى المالكى ، وأبو جعفر محمد بن عبد الملك بن سلامه الطحاوى ، والأمام عبد الرحمن بن القاسم المالكى الزاهد ، والحسين بن بشر ، وسعيد الجاهرى المتكلم على الخاطر ، وأبو جعفر النحوى المعروف بالنحاس المقرئ ، وأبو بكر المعروف بالأدفوى ، وأبو نصر سراج الدين الزاهد المعافرى ، وأبو بكر الحداد الفقيه الشافعى صاحب الفروع فى الفقه . والحسن بن على القضاعى ، وأبو هاشم المقرىء ، وسحنون المالكى . وأبو القاسم حمزة بن محمد الكنانى ، وكان ملازماً لزيارتها إلى أن مات ؛ والإمام أبو الحجاج الأشبيلى ، وأبو عبد الله بن الوشاء ، والامام يوسف بن يعقوب الأدفوى ، وأبو الحسن على الكعكى ، وأبو سهل الهروى ، والامام اليمنى ، والامام الحافظ عبد الغنى بن سعيد الأزدى ،

وأبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى ، وأبو زكريا يحيى السخاوى ، وأبو إسحق إبراهيم بن سعيد الحباك ، والامام أبو الحسن بن الحسن الخلعى ، وأبو الحسن الشيرازى ، وأبو الحسن الخشاب ، وأبو الحسن الفراء ، وأبو صادق بن مرشد المدنى ، وسلطان بن رشا الشافعى ، والفقيه بن مرزوق المالكى ، والامام ورش المقرىء ، والفقيه أبو الحسن على بن إبراهيم الحوفى صاحب التفسير ، والفقيه أبو طاهر بن بشاد النحوى ، والشيخ أبو زكريا البخارى ، والفقية ابن الوردى ، وابن نظيف المحدث العالم الكبير ، وعبد الباقى بن فارس المحدث ، والفقيه أبو محمد عبدالله بن داود الفارسى ، والفقيه عبدالله أبو الحسن الشيرازى الحافظ ، والشيخ المحدث أبو القاسم اليحمودى ، وابن بنت أبى سعيد الأنصارى ، والفقيه ابن المبلط المقدسى ، وأبو عبد الله الحموى النحوى ، وأبو طاهر السلفى الحافظ ، وأبو الحسن على بن الحسين الموصلى ، وأبو الفوارس الحميرى الذى كان يختم القرآن بركعتى الفجر ، وغيرهم من الأكابر الذين فات المؤرخين تسجيل أسمائهم ؛ نذكرها هنا ليقرأها خلف عن سلف ويذكروهم بالخير ، ويذكروا فضل السيدة نفيسة وبركتها ، إذ أضفت عليهم من ذكرها ذكرا ينتقل مع تاريخها من جيل إلى جيل حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وذلك جزاء الأوفياء .

ويقول الإمام الشعرانى فى لطائف المنن يصف إحدى زياراته لها :

وقد دخلت عليها مرة فوقفت على باب مشهدها تأدباً ، ودخل أصحابى إلى قبرها . فلما تمت جاءتنى وعلى رأسها مئزر صوف أبيض وقالت لى : أنا نفيسة . إذا جئت للزيارة فادخل إلى قبرى ، فقد أذنت لك . فمن ذلك اليوم أدخل لزيارتها وأجلس تجاه قبرها .

وقال على الخواص مشيراً إلى مشهدها : إن السيدة نفيسة فى هذا المكان الذى هى فيه بلا شك ؛ وإنها كلمته من ضريحها هذا مرات .

وقال بعض أهل الباطن الصالحين : إنهم يزورونها فيجدونها جالسة فى محراب مقصورتها فيسلمون عليها وتسلم عليهم .

الجلاء البصري والجلاء السمعي في العلوم الحديثة

و « الكشف » فى التصوف

ذكرنا منذ قليل أن علياً الخواص قال إن السيدة نفيسة رضى الله عنها كلمته من ضريحها مرات ، وأن بعض الصالحين يزورونها فيجدونها جالسة فى محراب مقصورتها فيسلمون عليها وتسلم عليهم .

وربما مر بعضهم على هذا القول مرتابا !

فإذا قيل له إن الاتصال بالموتى لا يقف عند حدّ تبادل الأحاديث معهم فحسب ، بل يتعدى ذلك إلى رؤية الأحياء للموتى بعين الرأس وفى حالة اليقظة . . يرونهم على صور وأوضاع متعددة . من قراءة للقرآن فى قبورهم أو الصلاة فيها أو طوافهم بالكعبة مع الطائفين من الأحياء ، أو رؤيتهم فى المقابر أو فى الدور أو فى طريق عامة — إذا قيل له ذلك اشتد به العجب ، واستبدت به الريب .

وربما قال ساخراً أو مفندا : لم قصرت هذه الظواهر على أفراد دون غيرهم ، ولم لم تحدث معى؟ وربما أضاف : أرونى شيئا من هذا حتى أصدقه !

ولا بأس من حديث موجز لهؤلاء المرتابين ، الذين لا يؤمنون إلا بالمحسوسات

ويجهلون أن وراء المحسوس عالماً آخر يقصر العقل عن إدراكه ، عسى أن يهديهم هذا الحديث إلى طريق الحق .

إن حوادث الرؤية والسمع وتبادل الحديث مع الموتى كثيرة جداً ، وواقعة مع شتى الناس ، فى شتى البلاد ، وشتى العصور ، بحيث أصبح إنكارها كإنكار ضوء الشمس وهى طالعة تخطف الأبصار ، وقد اتفقت كلمة المسلمين وغير المسلمين على صدق وقائعها ، وأقرها علماء الطرفين بعد جولات فى ميادين البحث .

فهذا هو الغزالى يقول فى كتاب المنقذ من الضلال عن بعض الصالحين : (إنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد) .

ويقول الجيلى : (من الناس من يَرَى صوراً روحانية تُناجيه) .

ويقول صاحب « المطالب القدسية » مؤيداً ذلك ومعللا : (إن بلوغ بعض النفوس حد الخارق فى الأعمال والمدارك تابع لاستعدادها الخاص وما يُفاض عليها من واهب الصور . وليست إفاضة المواهب على النفوس محدودة ، ولا إشراقات أنوارها على بعض أفراد نوع الإنسان مرصودة ، بل لا تزال بمحض الفيض شاملة لسائر النفوس ، وإن اختص بالقسم الأوفر منها أصحاب العزائم الصادقة وأهل حضرة القدس ومنهم المحدَّثون) .

وهنا يبرز الحديث النبوى الشريف ، ليفصل فى الموقف ، ولتقطع جهيزة قول كل خطيب ، وذلك حين يقول عليه الصلاة والسلام :

(لقد كان فيمن قبلكم من الأمم ناس مُحدَّثون من غير أن يكونوا أنبياء ، وإن يكن فى أمتى أحد فإنه عمر بن الخطاب) .

وعمر هذا هو الذى أبصر جيش المسلمين فى نهاوند ، وهو واقف يخطب

خطبة الجمعة فى المدينة ، وعلى مسافة شهرين بين البلدين ، أبصر الجيش الذى كان تحت إمرة (سارية) فى مأزق ، فصاح قائلا:(يا سارية . . الجَبَلَ !) فسمع سارية هذا النداء وهو فى نهاوند سماع المحقق ، وتصرف فى ضوئه وانتصر على العدو ، ولولاه لهلك جيشه .

وفى هذه الواقعة الصحيحة أمران خارقان للعادة يدخلان فى نطاق حديثنا هذا أولهما أن عمر (أبصر) أمراً بعيداً ، وثانيهما أن سارية (سمع) صوتاً بعيداً . أى أنهما كانا موهوبين فى تلك اللحظة ، هبة مفاضة عليهما من نوع الهبات التى يفيض الله بها على بعض عباده ، حين يعطيهم درجات فى السمع والبصر فيرون ما فى أقصى الأرض من مشهد ، ويسمعون ما فى أقصى الأرض من صوت .

ويستفاد من هذا أن الشرع الشريف ورد فيه ما يؤكد ذلك .

وإلى القارىء بعض الحوادث على سبيل المثال :

* * *

ورد فى طبقات الشعرانى عن الشيخ محمد الشناوى أنه كثيراً ما كان يخاطب السيد أحمد البدوى فى ضريحه ويستشيره فى أموره أمام الجمهور فيرد عليه بما يريد على مسمع منهم .

* *

وأن أبا بشر صالح المري كان يسمع كلام الموتى ويكلمهم ويكلمونه بالمواعظ .

* * *

وفي كتاب (الروحية الحديثة في التراث الإسلامي) يقول صاحبه : (حدثني

من لا أشك فى صدقه ولا تقواه أنه كان يشيِّع جنازة رجل صالح فراعه أن يرى هذا الرجل الصالح الميت يسير فى جنازة نفسه) .

* * *

ويقول محمد محمد الحريرى البيومى فى كتابه : (الروح وماهيتها) : إنه كثيراً ما يرى الأولياء المنتقلين فى أضرحتهم عند زيارتهم أو فى أى مكان آخر .

ويقول : إن كثيراً من الناس يرون أرواح الصالحين فى أضرحتهم، ويأخذون منهم الإرشادات الكافية، وأن هذا موجود ومحقق فى كل عصر .

ويقول إنه : فى أثناء الحرب العالمية الأولى كان يرى وهو فى مصر بعض حوادث الحرب وهى دائرة عياناً فى مختلف بقاع الأرض ، وأنه كان يحدث بها الناس قبل نشر أخبارها فى الصحف بأيام .

* * *

ويقدم الدباغ فى كتاب الابريز أدلة من وقائع كثيرة عن تبادل الأحاديث بين الموتى والأحياء . ويمكن لمن شاء التوسع فى هذا والاستزادة منه أن يرجع إلى هذا الكتاب وإلى كتاب طبقات الشعرانى وغيرهما من كتب الأولياء والصالحين .

وفى رسالة (الفضل والمنة) لعلى البيومى ما يؤيد ذلك .

* * *

ويقول الصوفية فى تعليل هذه الخوارق إنه إذا قوى النور فى روحانية الشخص أصبحت له قوة روحية مضيئة تحقق هذه الظاهرة .

وإن رؤية الناس لأرواح الموتى تزيد وتنقص وتقوى وتضعف بحسب فتح الرائى وقوة إمداده الروحى .

ويقول آخرون منهم : إن ما يأتيه المحققون من الصوفية ، راجع إلى قوة عبوديتهم لله وطاعتهم له وعدم اتكالهم علي أنفسهم أو ركونهم إلى الدنيا

وزخرفها الفانى . وأن هذه الخوارق يمكن أن تأتى عن طريق الرياضة والسلوك التعبدى . وأنه لا ينقطع وجود أمثال هؤلاء فى أى وقت من الأوقات .

هذا عن الأحياء ومواهبهم . أما عن الموتى فإنهم يبصرون ويسمعون ، وهذا ثابت من مخاطبة النبى صلى الله عليه وسلم لقتلى المشركين فى بدر فى حديث القَلِيب حين ناداهم بأسمائهم فقال له عمر : يا رسول الله أتخاطب أناساً جُيِّفوا ؟ فقال له الرسول (والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع منهم لما أقول) وصدق رسول الله ، فقد كانوا يسمعون ويبصرون بحواسهم الروحية ، فإن كل حاسة مادية تقابلها حاسة روحية ، والأولى فانية ، والثانية باقية ، والثانية أقوى من الأولى .

وإذا كان أحد من القراء من الذين أحبوا الغرب وفتنوا به فلا يؤمنون إلا بوارداته من علم أو فن أو صناعة ، ويكفرون بالشرق وصادراته ، وهم منه وللأسف . فلهؤلاء نسوق القول بأن العلم الغربى الحديث أيّد ما ورد فى التراث الإسلامى فى هذا الشأن فى مجموعه كل التأييد حتى يظن المرء أنه نقل عنه معارفه فى هذا ، كما نقل عنه كثيراً من العلوم والمعارف ونسبها إلى نفسه ، وأعطاه أسماء جديدة كالجلاء البصرى والجلاء السمعى بدلا من كلمة (الكشف) القديمة[١] وقدم بعض الفروع والشروح ، واستطاع بأجهزته الحديثة أن يسجل أصواتاً صادرة من الموتى إلى الأحياء ، وبهذا سقطت كل شبهة فى ذلك ، فى نظر المحققين.

* * *

وبعد . فإذا قال الخوّاص إنه خاطب السيدة نفيسة فى قبرها وأنها خاطبته مراراً فهو صادق .

وإذا قال غيره ممن لا يرقى إلى أقوالهم شك إنه يتبادل وإياها التحية والحديث فى ضريحها أو غير ضريحها فى أية بلدة ، فى القاهرة أو أسوان ، أو فى غيرها

(١) كلمة الكشف الصوفية القديمة أكثر دلالة على المراد من كلمة (الجلاء البصرى والسمعى) الغربية الحديثة .

من البلدان ، وأنه يتلقى منها إرشادات وتوجيهات عالية فى أمور دينه ودنياه ، وأنها تتولاه برعايتها الروحية السابغة ، مصداقاً لقولها :

(إنى ما زلت فى عالم الروح أعمل فأشد من أزر المجاهدين والمجاهدات ، ما استطعت بعون الله ، وأحاول أن يستقيم ظلهم وأن لا يعتور سلوكهم ما يشوبه من انحراف ما) .

إذا قال هذا فصدّق ، فإن القول ما قال : وإذا قال آخر من الصالحين الذين يصدقونك الحديث إنه رآها أو رأى غيرها من الأولياء يقرأ القرآن فى قبره ، أو يصلى فيه ، فلا تك من المكذبين .

واوْح إلى نفسك أنك تستطيع أن تكون مثل هؤلاء إذا سلكت سبيلهم فإن الباب مفتوح للجميع .

ولقد سمعت عن أحد أساتذة جامعة الإسكندرية ، وهو من الأتقياء الصالحين أنه كلما ذهب لزيارة ياقوت العرشى رآه فى ضريحه جالساً يتلو القرآن ، فما وسعنى إلا تصديقه ، لأنه أهل للتصديق .

وهكذا يجب أن تصدّق المتحدثين بهذه الظواهر والخوارق إذا كانوا من الصادقين ، الذين لا يفترون على الله الكذب ، وأن لا ننسى أنها من المواهب الإلهية التى ينعم المولى بها على من يشاء من عباده المصطفين الأخيار ، وليس لأنعم الله المفاضة على الكون كله بمختلف الصور والألوان ، حدود من مكان ، ولا قيود من زمان .

نساء عابدات في تاريخ الإسلام

قدم الإسلام منذ فجره الأول إلى الحياة الإنسانية ، أناساً صالحين لقيادتها فى كل ميدان . فقادوها موفقين مظفرين ، وبهم استطاع الإسلام أن يمد سلطان حكمه وسلطان تعاليمه إلى أقصى الأرض شرقاً وأقصاها غرباً فى وقت قصير ، وأن يقيم صرح حضارة كانت طفرة للبشرية ، ونعمة أسبغها الله عليها .

وكان فى الميدان الروحى كما كان فى غيره من الميادين ، متسع للرجال والنساء ، على السواء ، فبرز فيه أبطال وبطلات ، كانوا جميعاً خير قدوة ، وكانوا من أعلام الطرق . وما ذلك إلا بفضل تعاليمه السامية ، وبفضل ما بثه ويبثه على الدوام فى الناس من إيمان يستحوذ عليها ويحررها من ربقة الغرائز السفلى ويهيئها لصنع المعجزات .

إنه يهدم فى النفس كل جانب غير صالح منها ، ويبنى مكانه كل صالح ويحوّل مجراه من طريق إلى طريق ، ومن غاية إلى أخرى .

وكما ظهر فى الرجال عباد متبتلون . كذلك ظهر فى الحقل النسائى عابدات متبتلات ، لكن كتاب السير السابقين لم ينصفوهن ، ولم يعنوا بهن عنايتهم بالرجال ، فلم يسجلوا منهن سوى نفر قليل على صفحات التاريخ الإسلامى ، ذلك إلى أن المرأة بطبيعتها حييَّة ، وقد حجب هذا الحياء ، ولزومها المنزل ، كثيراً من

أنباءها وأحوالها عن الظهور على المسرح فاختفت أسماء كانت صالحة للظهور والإشراق .

ونكاد نجزم بكثرة الزاهدات العابدات فى الإسلام عبر تاريخه ، لحسن استعدادها الطبيعى لذلك ، كثرة توازى كثرة الرجال فى هذا الميدان ، إن لم تفقها ، ولو لم يُعرفن .

على أن القدر الذى عُرف منهن دليل على أن الإسلام غنىّ بنسائه غناه برجاله ، ودليل على أن قدرته على خلق النماذج البشرية الشامخة فى الرجال هى نفس قدرته على خلق هذه النماذج من النساء ، بما يمد به الجنسين على السواء ؛ من أسباب ذلك .

وتسجيل هذه الحقيقة هو الدافع الأول لنا على عقد هذا الفصل من الكتاب تضاف إلى ذلك الرغبة المخلصة فى تذكير المرأة بمجدها الدينى السابق عساها تعمل على استرداده ، بعد أن أخذ الطريق يلتوى عليها وتتكاثف ظلماته .

وأية موازنة أو مقارنة بين المسلمين والمسلمات فى صدر الإسلام ، وبين غيرهم ترينا البون الشاسع بين الطرفين .. ترينا ما صنع الإسلام بالبشر ، وكيف دفع بهم إلى الأمام بمناهجه فى تربية النفوس ، وما صنع غيره بهم حين أركسهم ودفع بهم إلى الخلف ، وترينا ما فى الإسلام من قدرات هائلة وأسرار كمينة أودعها الله فيه لخير الإنسانية ورقيها .

كان الإسلام شبيهاً ببستان توافرت فى أرضه للنبات أسباب النمو والازدهار ، فخرجت منها أشجار ضخمة عملاقة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين .

* * *

لمع فى تاريخ الروحية للإسلام ، العابدات الآتية أسماؤهن : (معاذة العدوية — رابعة العدوية — ماجدة القرشية — امرأة رباح القيسى — فاطمة النيسابورية — رابعة بنت إسماعيل — أم هارون — عمرة امرأة حبيب — أمة الجليل — عبيدة بنت أبى كلاب — حفيرة العابدة — شعوانة — آمنة الرملية — منفوسة بنت زيد بن أبى الفوارس) .

وقد يجد القارىء بعض أنبائهن وأقوالهن متناثرة هنا وهناك ، فى غير التزام للدقة فيما كتب ، وفى شىء من الخلط والتعارض فيه .

وقد ارتاب بعض كبار المفكرين الإسلاميين فيما نسب إلى رابعة العدوية من أقوال . كذلك فعل المستشرقون الذين قالوا بوجود زيادات وإضافات إلى أقوالها غير صحيحة[١] نتيجة لعدم تحرى الدقة فى النشر أو النقل .

وبغض النظر عن ذلك فإنهن جميعاً كن خليقات بكل إعجاب وتقدير ، رفعهن إيمانهن من نســاء عاديات كعامة النساء إلى منازل المجد والفخار عند الله والناس .

وكما انتقل الرجل من عبادات فردية إلى عبادات جماعية كذلك فعلت المرأة فى كثير من البلاد الإسلامية .

وقد حدد المقريزى تاريخ نشأة هذا النوع من العبادة بالقرن الرابع الهجرى . وفى خلال ذلك عرفت مصر كما عرفت بلاد أخرى ثلاثة أنواع عن المعابد الجمعية فى عصور الأيوبيين وسلاطين المماليك والعثمانيين ، وهى الخوانق[٢] والزوايا

---

(١) قال الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الإسلام ووزير الأوقاف سابقاً إن من التعسف أن ينسب إلى رابعة العدوية وصاحبتها القيسية التصدى لمعالجة دقائق المسائل الفقهية والكلامية والصوفية .

(٢) جمع خانقاة ، وهى كلمة فارسية معناها بيت العبادة وقد اندثرت هذه الكلمة مع الزمن وحلت محلها كلمة « تكية » ومعناها المكان المعد للدراويش من الأعاجم .

والربط ، للعبادة الجمعية ، يختلى فيها العابد فى اجتماع مع العباد ، وفى عزلة من غيرهم من الناس ، فى بعضها أما كن مستقلة للنساء العابدات ، وظهرت ربط خاصة للنساء حينما تكاثر عددهن ، كرباط البغدادية فيما بعد ، وكانت شيختهن فقيهة صالحة وافرة العلم ، كما كانت النساء المقيمات بهذا الرباط حريصات على التفقه فى الدين عن طريق دروس منتظمة تلقى عليهن فيه .

وكانت هناك خوانق خصصت فيها أقسام للسيدات . وقد انقرض هذا النوع من العبادات بالنسبة للنساء ، نخفتت أصوات رقيقة با كية ضارعة كانت سريعة الصعود إلى السماء ، على أجنحة من الصدق والصفاء . .

* * *

ولا شك أن السيدة نفيسة رضى الله عنها كانت الأخت النموذجية فى الله لكثيرات من العابدات ، وكانت المثل الأعلى الذى أوحى إليهن بما نهضن به من مجاهدات عنيفة وعبادات وطاعات .

كانت الرائدة الأولى والشمس الساطعة فى سماء العبادة والتبتل بين النساء فى الإسلام ، منها استمددن الحرارة والنور ، وبأسلوبها اهتدين واقتدين ، وبطيب ذكراها تضمخن .

ولا يعرف الكثيرون ما أعرفه من مطالعاتى من أن للسيدة نفيسة شهرة عظيمة عند الغربيين فى المجال الروحى ومواطن الرعايات والالهامات الروحية التى تفيض بها أرواح عليا على الأحياء فضلا من الله ورحمة .

ومما ضاعف من أنوار السيدة نفيسة ومن الإقبال عليها للاقتباس منها ، علمها الذى تحدثنا عنه من قبل والذى انفردت به بين الربانيات ، وانتسابها إلى بيت النبوة ، وهما شرفان لا يدانيهما شرف .

وللسيدة نفيسة ولآل البيت جميعاً على المسلمين حقوق مفروضة ، فى مقدمتها

حبهم والولاء لهم وتقديمهم وإيثارهم على من عداهم من أي صنف وأي لون ، وأي واد وأي ميدان . (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) .

وفى رسالة الصبان : « اعلم أن المحبة المعتبرة ، الممدوحة — لآل البيت — هى ما كانت مع أتباع سنة المحبوب ، إذ مجرد محبتهم من غير اتباع لسنتهم ، لا تفيد مدعيها شيئاً من الخير . فحقيقة المحبة هى الميل إلى المحبوب وإيثار محبوباته ومرضياته على محبوبات النفس ومرضياتها والتأدب بآدابه وأخلاقه .

ويقول الشعرانى « ومما منّ الله به علىّ محبتى للشرفاء وأهل البيت ولو من قبل الأم فقط ، ولو كانوا على غير قدم الاستقامة لأنهم بيقين يحبون الله ورسوله ومن أحب الله ورسوله لا يجوز بغضه » .

ويقول على الخواص : « من حق الشريف علينا أن نفديه بأرواحنا لسريان لحم رسول الله صلى الله عليه وسلم وروحه الكريمين فيه . فهو بُضعة منه ، وللبعض فى الإجلال والتعظيم والتوقير ، ما للكل ، وحرمة جزئه بعد موته كحرمة جزئه حياً على حد سواء » .

وكيف لا نحبهم وفينا هذه الأحاديث الشريفة :

— « أحبوا الله لما يغذوكم به ، وأحبونى بحب الله ، وأحبوا أهل بيتى بحبى » .
— « مثل أهل بيتى فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها هلك » .
— « من مات على حب آل محمد مات مغفوراً له » .

ولقد عبّر بعض العلماء والشعراء عن هذا الحب أحسن تعبير بقولهم :

من معشر حبهم دين وبغضهمُ　　كفر وقربهمو منجى ومعتصم

هم القوم من أصفاهم الود مخلصاً　　تمسك فى أخراه بالسبب الأقوى

هم القوم فاقوا العالمين مناقباً محاسنهم تحكى وآياتهم تروى
موالاتهم فرض وحبهمُ هدى وطاعتهم ود وودهم تقوى

ومما قال الإمام الشافعى فى هذا :

يا راكباً قف بالمحصَّب من منى واهتف بساكن خَيْفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى فيضاً كملتطم الفرات الفائض
لو كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى

ويقول محيي الدين بن عربى :

رأيت ولائى آلَ طَه فريضة على رغم أهل البعد يورثنى القربا
فماطلب المبعوث(١) أجراً على الهدى بتبليغــــه إلا المودة فى القربى

---

(١) المبعوث : هو النبيّ صلى الله عليه وسلم .

المشهد النفيسى بالقاهرة

بُنى المشهد النفيسى أولَ ما بُنى على يد ابن السرىّ بن الحكم أمير مصر ، الذى مات فى عام ٢٠٤هـ أى قبل وفاة السيدة نفيسة رضى الله عنها بأربع سنوات(١) .

وهذا المشهد قائم على القبر الذى حفرته السيدة نفيسة بيديها فى حياتها . ودُفنت فيه عند موتها فى عام ٢٠٨ هـ

وليس صحيحاً مازعمه بعضهم من أن قبرها قائم فى مكان آخر على مسافة من هذا المشهد .

ليس صحيحاً هذا على الإطلاق، ونحن نقرر هذا بعد أن تثبتنا منه من أوثق المصادر .

---

(١) من أخطاء بعض المؤلفين السابقين قولهم إن أول من بنى المشهد النفيسى الحالى هو السرى بن الحكم بينما الحقيقة هى أنه ابنه لا هو .

ويقول بعض المؤرخين إن السرى بن الحكم ولى مصر فى عام ٢٠٠ هـ ثم عزل فى السنة التالية ولكنه أعيد إلى منصبه فى السنة نفسها وبقى فيه حتى توفى فى عام ٢٠٤هـ ووليها بعده أبو نصر محمد بن السرى ثم تغلب عليها عبد الله بن السرى فى سنة ٢٠٦ إلى ٢١٠ ، حيث وجه إليه المأمون ، عبد الله بن طاهر فاستنقذها منه بعد حروب طويلة .

قال الشعرانى : قال على الخواص : إن السيدة نفيسة فى هذا المكان الذى هى فيه ، بلاشك ، وإنها كلمته من ضريحها مرات .

ويقال : إنه مكتوب على اللوح الرخامى الموضوع على باب الضريح ، وهو الذى كان مصفحا بالحديد مايلى : .

بسم الله الرحمن الرحيم

« نصر من الله وفتح قريب . لعبد الله ووليه معد بن أبى تميم الإمام المنتصر بالله أمير المؤمنين . صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه المكرمين .

«أمر بعمارة هذا الباب السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الأنام كافل قضاء المسلمين وهادى دعاة المؤمنين عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته وشد عضده بولده الأجل الأفضل سيف الأنام جلال الإسلام ، شرف الأيام ، ناصر الدين خليل أمير المؤمنين . زاد الله فى علائه وأمتع أمير المؤمنين بطول بقائه فى شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وثمانين وأربعمائه.»

والقبة التى على الضريح جددها الخليفة الحافظ لدين الله عبدالمجيد العلوى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائه . وأمر بعمل الرخام الذى بالمحراب .

وفى خلال التاريخ الطويل لهذا المشهد الشريف أقيمت حوله أو فى جواره مدافن للأمراء والحكام والأعيان تبركا بصاحبته واستدراراً للرحمة من جوارها . منها ما اندثر ومنها ما لايزال باقيا إلى اليوم . ومن أولئك من كان ينشىء مسجداً إلى جوار المشهد كالملك الناصر محمد بن قلاوون وغيره .

وكان مكتوبا على باب الضريح البيتان الآتيان وهما للامام الشافعى رضى الله عنه:

يا أهل بيت رسول الله حبكمُ   فرض من الله فى القرآن أنزله
يكفيكمُ من عظيم القدر أنكمُ   من لم يصل عليكم لاصلاة له (١)

وقد جدد المشهد مرارا . إحداها على يد الملك الناصر محمد بن قلاوون فى عام ٧١٤ هـ وأخرى فى عام ١١٧٣ هـ حيث جدد رحابه ورونقه الأمير عبد الرحمن كتخدا .

وأقيم بناؤه الحديث الحالى فى عام ١٣١٢ هـ وافتتح للعبادة فى عام ١٣١٤ باحتفال عظيم .

وقد ورد فى بعض المراجع أنه لما أزيل البناء القديم ورفعت الأتربة من صحن المسجد ظهرت مقامة القبر مبنية بالطوب اللبن . وحدثت ثغرة فى المقامة فسولت للمهندس المشرف على بناء المسجد نفسه أن يمد يده من الثغرة ليستطلع مافى القبر ، فمدها فمست جسما كجسم النائم ، فأصيب كفه فى الحال بدمل استمر فى علاجه ثلاثة أشهر ولم يبرأ منه إلا بتفلة من فم أحد الصالحين معروف باسم الشيخ سليم أبى حسن المسلمى ، بعد أن استتابه فتاب وقرأ الفاتحة ، وهذه الرواية يعرفها زوار السيدة نفيسة وجيران الضريح وخدم المسجد وهى لاتزال ذائعة فى حى السيدة نفيسة إلى الآن .

وقد رجعنا إلى مصادرنا الوثيقة فأكدت لنا صدق هذه الواقعة .

---

(١) أى صلاة كاملة

لقد نسي المهندس أو تناسى أن القبر قبر سيدة فضلا عن كونه للسيدة نفيسة ، وأنّ واجب الأدب نحوها كان يمنعه من أن يمد يده مستطلعاً ما فى القبر من تلك الثغرة . فلما سقط فى خطئه كان لابد له من جزاء يزجره ويردعه ، فلا يكرر هذه الخطيئة وهذا التهجم ، بل يلتزم حد الأدب . فكانت تلك الإصابة ، وقد زالت بعد أن تحقق الغرض منها وتعهد صادقا مخلصا أن لا يعود إليها .

وأخيراً نقول بأن المشهد النفيسى بما فيه مزار مبارك ، تغشاه فتحس بالسكينة والوقار يغمرانك ، وبالنفحات تتوارد عليك من جنباته . وكأن هذه النفحات هى رد التحية من السيدة إلى زائريها وأن جودها هو هو لم يزايلها على الرغم من مضى اثنى عشر قرناً عليها .

ومما قاله المقريزى : « قبر السيدة نفيسـة أحد المواضع المعروفة بإجابة الدعاء بمصر » .

ويقول بعض العارفين « من كان فى شدة وكرب فليتوجه إلى السيدة نفيسة بنت الحسن ، ويقرأ عند قبرها الفاتحة مرة (وسبح اسم ربك الأعلى) ١١ مرة . (والإخلاص) ١١ مرة ويهدى ثوابها إليها ثم يقول .

كم جاذبتنى شدة بجيشها فضاق صدرى من لقاها وانزعج
حتى إذا أيست من زوالها جاءتنى الألطاف تسعى بالفرج

يقول ذلك ١٨ مرة ثم يسأل الله ما يريد ، فتقضى حاجته بإذن الله تعالى .

وكان الأستاذ كافور الأخشيدى لا يدع زيارة السيدة نفيسة فى كل يوم خميس ، وعندما يبدو له باب المشهد من بعيد يترجل ويمشى ويدخل حاسر الرأس ويسأل الله تعالى فى ضريحها قضاء حوائجه فتقضى ، ويفى بالنذر . وكان يأتى بالمسك والطيب والشمع والزيت والقناديل ، ويحسن إلى خدم المقام والفقراء كثيراً .

واستمر على ذلك إلى أن توفى بمصر فى عام ٣٥٦ هـ .

دعاءات مأثورات

قال الموفق بن عثمان : كان بعض السلف يزور السيدة نفيسة ويقول عند ضريحها :

« السلام والتحية والإكرام والرضى من العليّ الأعلى ، الرحمن ، على السيدة نفيسة سلالة نبي الرحمة وهادى الأمة . من أبوها عَلَم العشيرة وهو الإمام حيدرة .

السلام عليك يا بنت الحسن المسموم . أخي الإمام الحسين المظلوم . السلام عليك يا بنت فاطمة الزهراء . بنت خديجة الكبرى . رضى الله عنك وعن أبيك وعمك وجدك . وحشرنا فى زمرتهم أجمعين .

اللهم بحق ما كان بينك وبين جدها محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج اجعل لنا من همنا الذى نزل بنا باب الفرج ، واقض حوائجى » .

* * *

وكان بعض السلف يقول أيضاً عندما يزورها :

« السلام والتحية والإكرام على أهل بيت النبوة والرسالة

السلام يا بنت الحسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن السبط بن الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين .

السلام عليك يا بنت فاطمة الزهراء . . ويا سلالة خديجة الكبرى .

أنتم يا أهل البيت غياث لكل قوم . فى اليقظة والنوم . فلا يحرم من فضلكم إلا محروم . ولا يطرد من بابكم إلا مطرود . ولا يواليكم إلا مؤمن تقى ولا يعاديكم إلا منافق شقى .

« إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهلَ البيت ويطهركم تطهيراً . رحمة الله وبركاته عليكم أهلَ البيت إنه حميد مجيد » .

اللهم إنك قد ندبتنى لأمر قد فهمته وقلته . سمعته وأطعته واعتقدته وجعلته أجراً لنبيك محمد صلى الله عليه وسلم . إذ هديتنا به إليك ، ودللتنا به عليك ، وكان كما قلت : « وكان بالمؤمنين رحيماً » . حبيباً إليه ما هديتنا عزيزاً عليه عَنَتُنا . وتلك الفريضة التى سألتها له وهى المودة فى القربى . اللهم إنى مؤديها مريداً بها النفع فى دينى ودنياى . متوسلا بها إليك ، يوم انقطاع الأسباب .

اللهم زدهم شرفاً وتعظيماً . وهب لى بزيارتهم ثواباً ومغفرة وأجراً عظيماً .

السلام يابنى المصطفى ، يا بنى فاطمة الزهراء .

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى أزواج سيدنا محمد وعلى ذرية سيدنا محمد .

اللهم بلغنى ما أملت ، وما رجوت ، وأعد علىّ وعلى المسلمين من بركاتهم يا رب العالمين .

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

اعطنى خير ما رجوت بهم . وبلغنى خير ما أملت فيهم . واحفظنى بذلك فى دينى ودنياى وآخرتى . إنك على كل شئ قدير .

ثم يقول :

يا بنى الزهراء والنور الذى ظن موسى أنه نار قبس
لا أوالى قط من عاداكم إنه آخر سطر فى عبس[١]

* * *

(١) يمكن أن يتلى الدعاء الثانى أيضاً عند زيارة أى قبر من قبور آل البيت ، رضى الله عنهم أجمعين .

آداب الزيارة

للأولياء ولآل بيت رسول الله

ينبغى لكل من أراد أن يزور ولياً من أولياء الله ، أو من كان هو من أهل البيت ،أن يتخلق بآداب الزيارة قبل التوجه ، ليعود عليه المدد ممن زاره .

وينبغى للزائر إذا دخل ضريحا من أضرحة أهل البيت : السيدة نفيسة أو غيرها أن يقول :

(إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً . رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) .

ويقول الشعرانى :

« إن من آداب الزيارة التشوق للمزور ، والجزم بفضله وطهارته من المعاصى المعنوية والحسية ، والتماس بركة دعائه وخلوص النية ، بأن يكون الباعث على الزيارة امتثال أمر الشارع ، وحفظ اللسان من الوقوع فى أعراض الناس ، وإن كان هذا أمراً عاماً ، ينبغى أن يلتزمه المؤمن فى جميع أحواله ، إلا أنه هنا فى حال الاتصال بالأخيار أولى وألزم .

فإن خلت الزيارة من هذه الآداب ، فلا نفع فيها ولا ثواب لها ، بل هى تكلف ونفاق .

وإذا زرته بحسن القصد وحسن الأدب ، والتوسل به إلى ربك ، إن كان من الموتى وكان من أهل الله ، فإنه لابد لك من الحظ الأوفر . فإن الله سبحانه وتعالى قد وكل بقبور الأولياء ملائكة يقضون حوائج الزائرين ، لأن أهل الله محل الكرم والسخاء ، أحياء وأمواتاً ، ومن دخل بيت كريم لا يرجع من غير مدد ، لا سيما إذا كانوا من أهل البيت ، رضي الله عنهم .

* * *

كذلك قالت السيدة نفيسة رضى الله عنها :

« إن لهذه الزيارة آداباً حبذا لو علمها الخاص والعام ، واتبعها حين الدخول وحين الخروج ، وحين البقاء معهم ، يجب أن يكون ذلك كله فى خشوع يذكّر الإنسان بالموت ، وهو الواعظ الأكبر لمن ألقى السمع وهو شهيد » .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال :

« من لم يعظه الموت فلا واعظ له »

وإن فى تلاوة القرآن فى أضرحة الأولياء ، مع الخشوع والتفكر فى معانى ما يقرأ ، والاتجاه بالقلب إلى ذلك الولى ، الذى جاهد حتى لقى الله ، والدعاء حينئذ بأن يوفق الله الزائر إلى أن ينسج على منوال ذلك الولى بعد أن يقرأ له الفاتحة ، فترفرف عندئذ روحه الطاهرة وتشارك فى الدعاء . إن فى ذلك ما يؤذن الزائر بالتعرض لنفحات الرضوان والقبول :

(إنما يتقبل الله من المتقين) .

* * *



المراجع

تاريخ الإسلام : للدكتور حسن إبراهيم .
طبقات الشعرانى .
الروح وماهيتها : لمحمد محمد الحريرى
إسعاف الراغبين : لمحمد الصبان
الرسالة القشيرية .
المطالب القدسية : لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد حسنين مخلوف.وكيل الأزهر سابقاً.
باب الفتوح : للأجهورى .
نور الأبصار : للسيد الشبلنجى .
شرح الصبان .
الروحية الحديثة فى التراث الإسلامى : لجمال الدين حسن حسين .
لطائف المنن للشعرانى .
الإنسان الكامل : لعبد الكريم الجيلى .
مقالات متفرقة فى بعض المجلات الإسلامية كالرابطة الإسلامية ومنبر الإسلام وغيرهما
التصوف الإسلامى لنيكلسون : ترجمه أبى العلا عفيفى
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة .
الجواهر النفيسة فى مناقب السيدة نفيسة .
الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان لابن تيمية .
حقائق فى التصوف : للأستاذ على سالم عمار .
التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام .
حلية الأولياء لأبى نعيم
الكواكب الدرية : للمناوى .
مشارق الأنوار فى فوز أهل الاعتبار .
التصوف فى مصر : للدكتور توفيق الطويل
تاريخ البلد الحرام : لعبد الكريم القطبى .

شكر وتقدير

يسرنى أن أختم هذا الكتاب بكلمة شكر أزجيها إلى الصديق الصالح ، والتربوى الجليل ، الأستاذ الحاج « يس محمد عيد شابى » مدير مدارس سنت تيريزا بأسوان ، على ما بذل لى خلال إعداد الكتاب من عون كبير ، يقلّ فيه أى ثناء مهما طاب ، وأى إطراء مهما عظم .

وأسأله تعالى أن يجزيه عنى أجمل الجزاء ؟

محتويات الكتاب

رقم الصفحة

كتب للمؤلف

السيدة نفيسة رضى الله عنها

حقوق الإنسان بين الشرق والغرب

رحلة إلى السودان (فى سبيل الوحدة)

عبد الرحمن الكواكبى

تحت الطبع

على أطلال أمبراطورية التاريخ

الروحية الحديثة تدعو إلى الإيمان

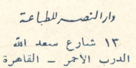
الإسلام يزحف

من وحى الرابطة الاسلامية

اعتـــذار

وقعت أخطاء مطبعيه قليلة فى بعض صحائف الـكتاب ولثقتنا فى فطنة القارىء وإدراكه لها من تلقاء نفسه اكتفينا بهذه الإشارة العامة إليها معتذرين عنها .

* * *



دار النصر للطباعة
١٣ شارع سعد الله
الدرب الأحمر – القاهرة

